

على أدهم

# الجماليات السرية

# أفرا

سلسلة ثقافية شهرية  
تصدر عن دار المعارف



دار المعارف





# أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية  
تصدر عن دار المعارف

---

[ ١٣٨ ]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

على أدهم

# الجمعيات السرية

الطبعة الثالثة



دارالمعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة  
ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ،  
هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ،  
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب  
العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم  
هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،  
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب  
من الحياة العقلية التى نعيشها .

طه حسين

## مقدمة

لعبت الجمعيات السرية دوراً هاماً في تاريخ البشرية ،  
وأثّرت تأثيراً عظيم الخطر بعيد المدى ، وكانت في بعض الأحيان  
أداة هائلة من أدوات التغيير والإصلاح والبناء ، وفي أحيان  
أخرى كانت وسيلة من أقوى وسائل الهدم والتدمير ، أو هز  
أركان المجتمع وزعزعة رواسيه ، وتفكيك روابطه ، وساعدت  
في بعض الأحيان الأهداف الكبيرة ، والغايات المثلى على  
التحقيق والظهور والغلبة والانتصار ، وفي أحيان أخرى جلبت  
المصائب الكبيرة وكانت سبباً في وقوع الأحداث الجليّة ،  
والجرائم المنكرة ، والحماقات والسخافات ، فليست هي خيراً  
خالصاً ولا شراً محضاً ، وإنما هي مزيج من الخير والشر ،  
وقد يتغلب فيها عنصر الخير والإصلاح ، وقد يعلو فيها باعث  
الشر والإفساد ، وقد تكون مجالا للإيمان الصادق والعقيدة  
الصحيحة ، وقد تكون مسرحاً للدجل والغش والخداع .

وللجمعيات السرية سحر خاص وجاذبية قوية ، تهفو  
بنفوس فريق من الناس ، وتستميلهم وتستأثر بأهوائهم ، وتبلغ  
منهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة والإتيان بغرائب الأعمال ،

وقبول الطاعة العمياء ، والاستسلام المطلق ، والواقع أن في الكتمان والسرية والخفاء والغموض ما يستهوى الخيال بوجه عام ، ويطلق الأوهام والأحلام ، وكلما كان السر أدق وأخفى وكان اللغز أعوص وأغمض كان سحر الخفاء أشد جاذبية وأقوى إطلاقاً للخيال ، وما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعاً بالغرائب والعجائب ، محباً لاستطلاع الأسرار وكشف المخبات واستجلاء الغوامض . ويعرف أصحاب الصحف والمجلات هذه النزعة الإنسانية الغالبة القاهرة ، فيطالعون القراء الفينة بعد الفينة بغرائب الحوادث ومدهشات الأخبار ، حتى إذا ما نصب معينهم ولم يواتهم القدر بالقدر اللازم من الحوادث المثيرة والخفايا المحجبة والأسرار المغيبة ، عمدوا إلى الاختلاق والتلفيق في بعض الأحيان ، واستعانوا بأخبار الجن والشياطين والعفاريت على إثارة حب الاستطلاع ، وميل الناس إلى ما يتجاوز حدود المؤلف والمعهود ، وقد يبالغون في الحادثة البسيطة والأخبار العادية ويضخمونها ويهللون بها ويخلقون من حبتها قبة ، ويضيفون عليها الأوصاف البراقة المثيرة ، والنعوت المحيرة للألباب ، حتى تغدو الحادثة المبتدلة الحلقة كأنها شيء فذ نادر قادم من عالم الظلام ، ودنيا الغيب والخفاء والأسرار ، ويعتقد الصحفيون البارعون أن القراء يريدون يباعث خفي صادر من أعماق نفوسهم ما يوحى



المجهول ، ويشعر بالغربة ، وينقل الإنسان إلى ما وراء الحياة اليومية الدارجة المملولة ، وينحونحوهم وينسج على منوالهم كتاب القصص والروايات التي تدور حول الجرائم الخفية ، وإمالة اللثام عن الأسرار ، وإعمال الفكر في استنباط الحيل وإحكام الشباك ، ويجد كتاب هذه القصص المجال متسعاً أمامهم ، فيبتكرون الألغاز ، ويثيرون المشكلات ، ويحتفظون بالسر الدفين فلا يكشفونه إلا في آخر القصة ، وكلما كان حل اللغز أكثر اعتياضاً وأشد استعصاء كانت القصة أعمق في التسلية ، وأبلغ في التشويق ، وأكثر ابتعاً للنشاط والارتياح ، وهذا النوع من القصص يجد على الدوام إقبالاً ورواجاً ، حتى بين طبقة المثقفين ثقافة عالية ، والذين أوتوا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة ، وقد حدثنا برتراند رسل أشهر فلاسفة البريطانيين في العصر الحاضر عن ولعه بأمثال تلك القصص في أحد فصول كتابه عن « السلطة والفرد » .

والجمعية السرية تضيف إلى هذا الولع البدائي بالمجهول جاذبية أخرى ، فهي تمثل لنا قوة غير معروفة ، ومصدر هذه القوة هو جماعة من الأفراد قد اجتمعوا ليقوموا بعمل يعجز عن القيام به الفرد بنفسه ، وقد يكون هذا العمل خيراً وقد يكون شراً ، ولكنه في الخالين يتسم بميسم السر ، ويلحق بعالم الخفاء .

والوسائل التي تتخذها الجمعية قد تبدو صالحة نافعة ، وقد تظهر ضارة هدامة ، فأنصار النظام القائم يجدونها ضارة مؤذية ، والناقمون عليه المتبرمون به يعدونها صالحة مجدية ، ورجالها في رأي فريق من الناس طلائع عهد جديد ورواد فكرة مستحدثة ، وفي رأي فريق آخر هم مجرمون هدامون ، لا مفر من قطع دابرهم ، والقضاء عليهم ، ليستريح المجتمع ويأمن الناس .

ومن المشاهد الملحوظ أن الجمعيات السرية تكثر وتعم حيث تضطرب الحياة الاجتماعية ويسود الطغيان والاستبداد ، والضيق والحرمان ، ويشعر الناس بحاجة ماسة إلى مقاومة الطغيان والانتقام من الظالمين ، وموجدو هذه الجمعيات لهم غرض يتوخونه ويعملون على تحقيقه ، وقد يكون هذا الغرض إنسانياً سامياً ، وقد يكون إجرامياً وضيقاً ، ولكن السرية والخفاء والتستر والإيهام سرعان ما تجتذب إليهم الأنصار والمؤيدين والأتباع والأشياع ، وتختلف البواعث التي تهيب بهؤلاء الأنصار إلى الاندماج في الجمعية والانخراط في سلكها ، فمن الناس من يستميله حب السيطرة والطمع في السلطة والنفوذ والتمجد والاستعلاء ، ومن الناس من يؤثرون العمل في الخفاء والإدلاج في السواد ، ويجدون في ذلك مجالا لإظهار قدرتهم وكفايتهم ، والكشف عن مواهبهم ومملكاتهم ، وبعض الجمعيات السرية ترمى منذ إنشائها إلى

أغراض شريفة فاسدة ، وبعضها يرمى في بدء تأسيسه إلى أغراض  
 نبيلة ، ولكنها سرعان ما تنحرف عن طريق الخير ، وتنزل إلى  
 الشر ، ويصبح هدفها الإجرام والإرهاب ،

وفي بعض الناس ما يصح أن نسميه « عقدة الجمعيات  
 السرية » ، وأمثال هؤلاء يعززون كل شيء إلى تأثير الجمعيات  
 السرية والحركات الخفية ، وهم يتصورون أن هناك مؤامرة كبرى  
 مخبأة مبيتة لهدم الحضارة والقضاء على الآداب ، وهم يعززون إلى  
 القائمين بأمر هذه المؤامرة أبعد الخطط إغراقاً في الخيال ،  
 وإمعاناً في الظنون والأوهام ، وقادة هذه الجمعية المتوهمة قوم  
 مجهولون بطبيعة الحال ، ولكن قوتهم غير محدودة ، وهم خلف  
 كل حركة هدامة ونزعة ضارة ، ومثل هؤلاء الناس حينما  
 يتحدثون عن ثورة كالثورة الفرنسية ، لا يقتنعون بما كتبه عنها  
 أمثال مينييه ، ومشليه ، وتين ، وكارلايل ، وأضرابهم من  
 المؤرخين الأثبات الثقاة ، لأن هؤلاء في رأيهم لم يصلوا إلى سر  
 الثورة الخفي ومدبريها المجهولين ؛ وعندهم أن موجدى الثورة هم  
 أفراد هذه الجمعية السرية الهدامة التي تبث سمومها خفية ،  
 وتنصب شباكها دون أن يعلم أحد ، والأسباب التي اعتاد  
 المؤرخون أن يذكروها في تحليل حدوث الثورة الفرنسية لا ترضيهم  
 ولا تقنعهم ، بل هي في نظرهم أسباب سطحية لا تقدم ولا تؤخر ،

أما السبب الحقيقي والعلّة الخفية فهو سعى هؤلاء الهدامين المستورين أفراد الجمعية السرية التي تعمل منذ عهد عهد على تقويض الحضارة ، ومحو الأديان ، وهدم القوميات ، وإسقاط الدول والإمبراطوريات ، وهم يفسرون التاريخ وحركاته على هذا النمط العجيب على الأقل في رأي واعتقادي !

ولا نزاع في أن الجمعيات السرية التي ظهرت في التاريخ كثيرة متعددة ، وأكثر الحركات السياسية التي يقوم بها المظلومون والمضطهدون أو الذين يشعرون بأنهم مظلومون ومضطهدون ، يغلب عليها مجانبة الجهر والصراحة ، والطرق القانونية المشروعة ، والالتجاء إلى التستر والاستخفاء ، كما أن معظم الأحزاب السياسية العلنية لها أسرارها الخفية ودخائلها الدفينة وأهدافها المستورة المحجبة ، التي لا يعلم دقائقها سوى قادة الحزب وزعمائه .

والجمعيات السرية تكاد تكون في الواقع مؤامرة مطبوعة بالطابع الأرستقراطي ، وقد أخذت على أعضائها العهود المبرمة والمواثيق المؤكدة ، وفرض عليهم التزام الصمت وإطاعة الأمر ، وهم ينزلون على أمرها ويرتضون حكمها ، إما بدافع من الفكرة التي ملكت عليهم نفوسهم ، وإما بدافع الرهبة والخوف من الانتقام والتنكيل ، ويحرص الأعضاء البارزون في تلك الجمعيات



على بسط سلطان الجماعة والتكثّر من الأنصار والأعوان ،  
 والمساعدين الصادقين النافعين المجريين ، ولكنهم يحرصون في  
 الوقت نفسه على أن يظل لهم الصدر والكلمة المسموعة والرأى  
 المطاع والتقدم والأسبقية ، ولذلك يستمسكون بنظام خاص من  
 نظم الطبقات ، لا يعرف سره إلا الزعماء والرؤوس ، ولقد  
 وجدت دائماً جمعيات سرية مكونة من خلايا مختلفة متعددة ،  
 ولا يعلم أفراد الخلية الواحدة شيئاً عن أفراد الخلايا الأخرى ،  
 ويحسبون أنهم وحدهم أعضاء الجمعية ، وتتبع هذه الجمعيات  
 نظاماً دكتاتورياً ، وتجعل من أهدافها مبدأ يدق فهمه على  
 الأعضاء العاديين ، ولا يفقه سره إلا الفئة القليلة التي تدبر  
 الخطط وتضع المناهج ، ولذا يشاهد أن الحركات التي ترمى إلى  
 أغراض ديمقراطية محضة لا تميل في العادة إلى اتخاذ الأساليب  
 السرية ، ولكن القائمين بتلك الحركات الديمقراطية النزعة قد  
 يضطرون إلى اصطناع الأساليب الخفية حينما تخفق الأساليب  
 الشرعية العلنية ، وتمتاز الجمعيات السرية التي لها هدف معين  
 بالتحمس الشديد لتحقيق هذا الهدف والإخلاص له والتفاني في  
 سبيله ، ولو أن الرغبة في إثارة الدهشة والتعجب وإحداث الضجة  
 المدوية قد تلعب دوراً هاماً في أعمال أعضائها ، وتستأثر بنصيب  
 وافر من جهادهم ، ومتى ظفروا ببيغيتهم بطلت الغاية من وجود

الجمعية ، وانحل عقدها وانقرط نظامها ، وبخاصة حينما يكون غرضها الأصيل سياسياً محضاً ، ولا لزوم للالتجاء إلى السرية حينما يمكن اتباع الأساليب المشروعة ، وإلى أن يحدث هذا يقبل على الجمعية قوم مختلفو النزعات ، متباينو الأمزجة والمشارب ، وليس أدخل في الخطأ من الاعتقاد بأن الجمعيات السرية — مهما كانت أغراضها — مكونة من رجال متشابهى الأخلاق والنزعات والعقول والأفهام ، وربما كان هناك عقلية خاصة يمكن أن نسميها « عقلية الجمعيات السرية » ، يشترك في بعض سماتها من يميلون بطبيعتهم إلى الدخول في أمثال تلك الجمعيات ، ولكن إذا تجاوزنا هذه الصفة المشتركة ، وجدنا الجمعيات السرية تضم أقواماً مختلفى الألوان والاتجاهات ، ففيها المثاليون المخلصون ، والأبطال المقادير ، والفدائيون الخالص ، والمتعصبون المسرفون في تعصبهم ، والبله المغفلون ، والأغرار المندفعون ، والمغامرون القساة الأفظاظ ، والنفعيون الأنانيون ، والمتشككون الذين لا يؤمنون بشيء ، والدساسون الأفّاكون ، والخنونة المارقون ، وأكثر هؤلاء يستشعرون السرور لأنهم يعملون في الظلام ويستهدفون لأخطاره ، ويجدون في ذلك متعة لا تعدلها متعة ، والذي يلفت النظر في أعمال أمثال هذه الجمعيات السرية ، أنها قد تم على ضروب من الشجاعة والإقدام لا تكاد

تصدق ، وتأتى بأمثلة من إنكار الذات ليس لها نظير ، ولكن الغريب أنها قد تفعل ذلك كله من أجل مذهب فاسد . وفكرة منحرفة ، وغاية مسفة ، ليس لها سند من حسن الإدراك وصحة التقدير ، ولا من فهم سنن الكون وطبائع الأشياء ، وفي بعض الأحيان تصبح أمثال هذه الجمعيات السرية وباءً يجب لإبراء المجتمع من عقابيله ، واستنقاذه من آفاته وعلاله ، وتخليصه من أوزاره وجرائمه ومنكراته ، والكثيرون من أعضاء هذه الجمعيات يقبلون عن طيب خاطر أن يضعوا عقولهم وإرادتهم وحياتهم تحت تصرف زعيم مجهول ، قد لا يعرفون صورته ، ويجهلون أخلاقه وسيرته ، وقد يكون هذا الزعيم المستر المحجوب رجلاً دعياً دجالاً خبيثاً لثيماً وغداً ، يستغل حماسهم من أجل أغراضه الوضيعة ، ومطامعه ولباناته ، وقد كان الباعث على تأليف بعض الجمعيات السرية المعروفة في التاريخ على جانب من السمو ونبل الغاية ، ولكن هذه الجمعيات مهما سمت غايتها فإن طبيعة التآمر والتزام التخفى والتستر والعمل في الظلام تطبع عقول أفرادها بطابع الضيق والتعصب ، وتميل بهم إلى الإجرام والقسوة والإرهاب ، والتآمر بطبيعته إعداد للثورة وتهيئة للانقلاب ، فهو بطبيعته هدام ، ومتى تكونت العقلية السرية المتآمرة عظمت الغاية في نظر أفراد الجمعية وجلّت ، وهانت الوسيلة وتضاءلت ،

واستهوت الجمعية إلى الانضمام لصفوفها ذوى الأذهان الملتوية ،  
والعقول المنحرفة والخياليين المفتونين والميالين بطبيعتهم إلى الدس  
والتآمر والإجرام ، ومن ثم فإن أمثال هذه الجمعيات إذا صادفها  
التوفيق وحقت أهدافها قلَّ أن يظهر بين رجالها قوم من أصحاب  
النظرة المستقيمة الواسعة ، والآراء النيرة السليمة المتسامحة ،  
ولذلك تعجز عن استثمار نجاحها ، ويمقت الناس سياستها ،  
ويضيقون بها ، لأنها لا تقوم على الصراحة والمكاشفة والوضوح ،  
وإنما تعتمد إلى المراوغة والمواربة واللف والدوران والتكتم والحذر  
وسوء الظن .

والجمعيات السرية قد نشأت فى مختلف العصور وشتى  
الأمم ، وهى قديمة قدم الحضارة نفسها ، وقد كان للكثير من  
الأديان القديمة أسرارها الخفية وطقوسها وشعائرها وحفلاتها  
وتعاليمها التى يتلقاها الداخلون فيها ، وفى خلال القرن التاسع  
عشر كثرت الجمعيات السرية كثرة ملحوظة ، وكان لمبادئ  
الثورة الفرنسية وظهور مبدأ القوميات أثر واضح فى تكوينها  
وإنشاء برامجها . والتيارات الفكرية الجديدة تساعد على وجود  
الجمعيات السرية وتمهد لها ، وقد كان لحركة الإصلاح الدينى  
فى أوربا وظهور مارتين لوتر أثر فى نشوء بعض الجمعيات السرية  
فى ألمانيا ، وكذلك كان لأفكار أصحاب الموسوعة وآراء روسو ،



وقولتير ، أثر في ظهور الجمعيات السرية في فرنسا .  
 وأساليب الجمعيات السرية في شعائرها ومراسيمها  
 ورموزها وخفاياها تكاد تكون متشابهة . ولا نزاع في أن بعض  
 الجمعيات السرية قد استعارت شعاراتها ورموزها ونظام محافلها  
 واجتماعاتها من جمعيات أخرى تقدمتها ، ولكن الاستعارة والاقتباس  
 والتشبه والمحاكاة ليست وحدها سبب هذا التشابه والتقارب ،  
 وإنما سبب ذلك تشابه العقلية النزاعة إلى الجمعيات  
 السرية .

وتاريخ الجمعيات السرية مثير للخيال حافل بالطرائف  
 والعجائب ، ونلمح فيه حيناً الأمثلة الممتازة من الجرأة والإقدام ،  
 وحيناً آخر نرى فيه الأدلة الواضحة على قسوة الإنسان المتناهية  
 في معاملة أخيه الإنسان ، وتقديره والحكم على أعماله ، وقد  
 كانت الجمعيات السرية في بعض الأمم عاملاً هاماً من عوامل  
 حياتها السياسية والاجتماعية ، فالجمعيات التي كانت تتوارى  
 في غياهب السرية بالأمس ، قد تصبح اليوم صاحبة الأمر  
 والنهي وقابضة على أزمة الحكم ، وقد كانت الشرارة التي أشعلت  
 نيران الحرب الكبرى الأولى هي طلقات الرصاص التي وجهها

الطالب الصربي « جافريلو برتنسيب » إلى الأرشيدوق فرانتر  
 فرديناند وريث العرش النمساوى فى سراجيفو عاصمة البوسنة ،  
 وكان هذا الطالب عضواً فى جمعية اليد السوداء الصربية ، يتلقى  
 وحياً ويعمل بإشارتها ، وقد أمرته الجمعية بارتكاب هذه الجريمة  
 الشنعاء ، ومهدت له سبيلها ، ودفعته إليها دفعاً ، وقد رنّ صدى  
 هذه الطلقات فى جميع أرجاء العالم ، وعجلت بوقوع الحرب  
 العالمية الأولى . وهتلر نفسه كان من رجال الجمعيات السرية  
 التى وصلت إلى الحكم ، وواضح أن مثل هذه النشأة كان لها  
 أثرها فى وقوع الحرب العالمية الثانية ، وقد كان للعوامل السرية  
 أقوى أثر فى ظهور الدولة العباسية فى المشرق ، والدولة الفاطمية  
 فى المغرب ، فإن كان الإصلاح والخير والتقدم يحىء فى بعض  
 الأحيان عن طريق الجمعيات السرية ، فى أحيان أخرى كثيرة  
 ملحوظة لا يحىء عن طريق أمثال هذه الجمعيات سوى الشر  
 والوبال والدمار ، مهما سمت غايتها فى بادئ الأمر ، ومهما  
 أظهر أعضاؤها من ضروب الشجاعة والإقدام وإنكار  
 الذات .

والجمعيات التاريخية التى عرفها التاريخ كثيرة متنوعة ،

وليس من همى فى هذا الكتاب الموجز إحصاؤها واستقصاء تاريخها ، وقد اجتزأت بتخير بعض الجمعيات السرية المشهورة وتحريت فى الاختيار التنويع والدقة فى عرض الحقائق التاريخية والتزام الحيطة والنزاهة .

## طائفة الإسماعيلية النزارية

في سنة ٤٨٣ هجرية استولت طائفة الإسماعيلية النزارية على ذلك المعقل الأشب والحصن المنيع المعروف باسم قلعة الموت ، فقويت شوكة هذه الطائفة ، واستغلظ أمرها ، وتفاقم خطرهما ، وقطع أتباعها طريق القوافل ، وأسرفوا في قتل السابلة ونهب الأموال ، وأصبحوا دولة باغية معتدية في داخل الدولة ، واضطر سلطان السلاجقة في ذلك العهد — وهو السلطان ملكشاه — إلى أن يفكر تفكيراً جدياً في استئصال شأفة هذه الطائفة وقطع دابرهما ، ورأى قبل الشروع في ذلك أن يوفد إليهم رسولا يحمل إليهم رسالة يدعوهم فيها إلى الطاعة والكف عن إيذاء رعيته ، وقد سار الرسول من أصفهان وأخذ في اختراق السهوب وقطع المفاوز وتوغل الهضبات وهبوط الأودية في ذلك الإقليم الوعر المسلك الواقع في جنوب بحر قزوين والمسمى رودبار ، حتى بلغ تلك القلعة الشماء الواقعة في سلسلة جبال البرز ، وقوبل الرسول بالحفاوة والترحيب ، واستقبله الحسن بن الصباح زعيم الطائفة ورأسها المفكر وعقلها المدبر ، وهو في ثيابه



البيض ، وقد حفر به جماعة من أصحابه في ثيابهم البيض ، وأخذتهم الحمر متنطقين بأحزمة أرجوانية ، وفض الحسن غلاف الرسالة الملكية ، وعلم فحواها ، وطاف بالرسول في بعض حصون القلعة ، ثم التفت إلى الواقفين بين يديه الخافين به وقال « أريد أن أنفذكم إلى مولاكم في حاجة ، فمن ينهض لها ؟ » فاشرب كل واحد منهم لذلك ، وظن الرسول أنها رسالة يحملها إياهم ، فأومأ إلى شاب منهم وقال : « اقتل نفسك » فما كان من الشاب إلا أن جذب سكينه وضرب بها غلصمته فخر ميتاً ، وقال لشاب آخر « ارم بنفسك من القلعة » فألقى الشاب بنفسه من القلعة دون تردد ، فاندق عنقه وتكسرت أضلعه فوق الصخور ، والتفت الزعيم الرهيب إلى الرسول الداهل المتعجب ، وقال له في هدوء وطمأنينة : « قل لمولاك إن عندي عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم » ، وعاد الرسول وأخبر ملكشاه . فعجب من أمرهم ، ولكن السلطان ملكشاه كان رجلاً قوى الشكيمة ، رابط الجأش ، لا تلوى حرب الأعصاب عزمه ، ولا تكسر إباءه ، فجرد جيشاً جراراً للاستيلاء على القلعة والقضاء على الحسن الصباح وعصبته ، ولولا أن المنية عاجلته لاستطاع على الأرجح أن يحقق غايته ويظفر بأمنيته .

على أن سلاطين السلاجقة لم يكونوا جميعهم من معدن

السلطان ملكشاه ، ولم يكن لهم كلهم مثل رزائته وثباته ، فقد أراد السلطان سنجر — أحد خلفاء ملكشاه — أن يقاوم نفوذ الحسن الصباح ، وحاول حصار قلعة آلموت ، وشدد عليها النكير ، وحاول الحسن من ناحيته أن يثني عزم السلطان ، فلما عجز عن إدراك بغيته لجأ إلى الخداع والإرهاب وخرب الأعصاب ، فتمكن من إغراء بعض خدام السلطان بغمس خنجر بالقرب من سرير السلطان سنجر ، فلما استيقظ السلطان ارتاع وانتابته المخاوف والأوهام ، وأتبع الحسن ذلك برسالة هدد فيها السلطان قائلاً : « إن من يستطيع أن يغمس ذلك الخنجر في الأرض الصلدة يسهل عليه أن يغمسه في صدر السلطان » ، فاهتز قلب السلطان هلعاً أمام هذا التهديد ، وتراجع عن حصار آلموت ، وعقد اتفاقاً مع الحسن الصباح ، وكانت شروط الاتفاق تعلى من شأن الحسن بمقدار ما ترى بالسلطان .

ولست أزعم أن هذه الروايات المتواترة عن شدة نفوذ الحسن وفرط طاعة أعوانه له فوق متناول الشك ، ولكن يمكن أن نتبين من خلال أمثال هذه الروايات المستفيضة حقيقة تسمو على الشك ، وهي قوة استيلاء الحسن على نفوس أصحابه ، واستحكام هيئته في نفوسهم ، وأنهم كانوا يصيدون عن أمره ولا يقصرون في طاعته ، ولكن من هو هذا الحسن بن الصباح

الذى بلغ من نفوس أتباعه هذا المبلغ ، واستطاع بدهائه وسعة  
حيلته أن يسخرهم في سبيل أهوائه ومطامعه ؟

ولد الحسن بن علي الصباح في مدينة الري ، والظاهر أن  
تاريخ ميلاده ليس معروفاً على وجه التحقيق ، والأرجح أنه ولد  
بعد انقضاء الثلث الأول من القرن الخامس الهجري ، وكان  
أبوه علي الصباح فقيهاً شيعياً رقيق الحال ، يتكلف الزهد والورع  
ويصطنع التقية ، وقد أرسله أبوه إلى نيسابور ليأخذ العلم على  
« الموفق النيسابوري » ، أحد علماء السنة البارزين في ذلك  
العهد ، وتلقى الحسن هناك أصول المذهب السني ، لا عن  
عقيدة واقتناع ، وإنما توقياً للشر ودفعاً لتهمة الإلحاد والزندقة .

ودرس الحسن الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء ،  
وهي العلوم التي كان يستعين بها في عصره أصحاب المطامع  
والأدعياء والدجالون ، ليتخذوا منها وسيلة لاستغلال العامة ،  
واستجلاب المنافع ، وتوطيد النفوذ .

وعمل الحسن في ديوان السلطان ملكشاه في أصفهان ،  
وأظهر في عمله تفوقاً ملحوظاً ، وقدرة نادرة ، وكفاية عظيمة ،  
فرضى عنه السلطان وقربه ، وصار يستشير في الملهمات  
والأحداث الجسام ، فأوغر ذلك صدر الوزير الخطير « نظام  
الملك » صاحب الدولة والصولة في عهد ملكشاه ، ونحش على

نفوذه من دسائس الحسن ، ونشبت بين الرجلين معركة طاحنة عقد فيها لواء النصر للوزير ، الذى استطاع أن ينال من مكانة الحسن عند السلطان ، ويكشف له عن نياته الخفية ، ومخالفاته المذهبية ، فأقصاه السلطان عنه ، وفصله من خدمة الديوان

وقد نشأ الحسن فى عصر اشتد فيه النزاع بين مذاهب الشيعة والمذهب السنى ، وكان الحسن فى أول نشأته من الشيعة الاثنى عشرية ، وقوى الصراع بين أنصار الشيعة الاثنى عشرية والشيعة الإسماعيلية ، وخاض الحسن غمار الجدل بين دعاة المذهبين ، ومال إلى المذهب الإسماعيلى ، وانضم إلى دعاة ، وبرز بينهم بما أوتى من قدرة على الإقناع ، وما بذله من جهد فى العمل على نشر المذهب الإسماعيلى ، وقد ظهرت بوادر هذا النشاط فى إذاعة الدعوة الإسماعيلية وهو يعمل فى ديوان السلطان ملكشاه ، وكان ذلك من بواعث تصدى الوزير نظام الملك لمحاربته ، فقد كان نظام الملك شديد التمسك بالمذهب السنى وخصماً عنيداً للشيعة .

وفرغ الحسن بعد طرده من ديوان السلطان ملكشاه للدعوة الإسماعيلية ، حتى أصبح فى الرعيلى الأول من رعاتها ، وتضلّع فى علوم مذهب ، وتعمق فى معرفة مبادئه والإمام بدوائقه ، واتصل بعبد الملك بن عطّاش رئيس الدعوة الإسماعيلية بأصفهان ،



وسرّ به ابن عطّاش ، وأعجب بعلمه وإخلاصه للدعوة ، واختصه بثقته وحسن تقديره ، ومهد له ابن عطّاش سبيل الذهاب إلى مصر ، ليرتشف أصول المذهب الإسماعيلي من ينايحه الأصيلة ، ويعرف أئمة المذهب وكبار دعائه ، وقد وصل الحسن إلى مصر في سنة ٤٧١ ، واستطاع أن يتعرف على كثير من الإسماعيلية في طريقه إلى مصر ، والظاهر أن الدعوة بمصر كانوا يعرفون الكثير من أخبار الحسن وحسن بلائه في الدعوة الإسماعيلية ، فقد رحب به داعي الدعوة ، وأكرم وفادته الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وأفرد لإقامته منزلاً خاصاً ، وذلك بالرغم من أنه لم يسمح له بالمثل بين يديه واجتلاء محياه ، وكان مع ذلك يظهر عطفه عليه وحبّه له ، ولا يتكلم عنه إلا بكل إجلال وإكبار كما يروى لنا الحسن نفسه .

وقضى الحسن في مصر ثمانية عشر شهراً ، أكب فيها على علوم الإسماعيلية ، ودرس فيها أصول المذهب الإسماعيلي السرية دراسة وافية مستفيضة على أساتذة « دار الحكمة » وفي مجالس كبار رجال الدعوة ، ولم يكن للخليفة الفاطمي حينذاك نصيب من النفوذ السياسي ، وكانت مقاليد الحكم بيد أمير الحيوش « بدر الجمالي » المتغلب على الدولة والمستأثر بالنفوذ ، واتفق في أثناء وجود الحسن بمصر أن أثرت مسألة وراثة العرش ، فرشح

الخليفة الفاطمي ابنه نزاراً ليكون خليفة له ، ولكن الوزير الخطير بدران الحمالي لم يرض عن هذا الترشيح ، واختار لولاية العهد المستعلي - وكان المستعلي حفيد الوزير الخطير - وأيده في ذلك أنصاره ، ولم يعجب الحسن هذا الاختيار ، لأنه كان يرى فيه مخالفة للتعاليم الإسماعيلية ، وساءه تحيز أمير الجيوش لاختيار المستعلي ، وقامت المنازعات بينه وبين أمير الجيوش ، وهكذا كان الحسن مبتلى بعداوة الوزراء العظام ، وقد حمل بدر الحمالي الخليفة المستنصر على إقصاء الحسن ، وأمر به فاعتقل في بعض قلاع دمياط ، ولم يكتف الوزير بذلك لأنه كان يعتقد أن في وجود الحسن بمصر خطراً على كيانه ، ولذا عمل على رحيله إلى بلاد المغرب ، ولكن الأقدار كانت تعد للحسن مصيراً آخر ، فقد فر الحسن من معتقله ، وانتقل في بعض السفن إلى سواحل الشام ، ويروى أن عاصفة شديدة هبت على السفينة في أثناء الرحلة ، ويثس الملاحون وسائر ركاب السفينة من النجاة ، وخافوا وجزعوا ، وظل الحسن محتفظاً بثباته وتجلده وصفاء تفكيره ، ولما سأله بعض من بالسفينة عن سبب هذوئه وثباته ، وقد طارت النفوس شعاعاً وتبددت جزعاً وإشفاقاً ، أجابهم : « إن الله وعده بالنجاة » ، وهدأت العاصفة بعد ذلك وشقت السفينة طريقها آمنة مطمئنة ، فعدّ ركاب السفينة ذلك

من المعجزات ، وكبر الحسن في نفوسهم ، وتقانوا في خدمته وطاعته وانضم فريق منهم إلى دعوته .

وقد سبب الخلاف بين الحسن وبين أمير الجيوش مضايقات للحسن وأوقعه في مشكلات ، ولكن من ناحية أخرى قد رفع من شأنه في نظر أنصار الدعوة الإسماعيلية ، لأنه أظهره في مظهر المنتصر للمبادئ الحريص على أصول الدعوة ، وقد أفاد الحسن من دراسته الأحوال في مصر ، وأدرك أن الدعوة الإسماعيلية في مصر قد أصبحت ضعيفة أمام نفوذ القواد وكبار رجال الدولة ، وأخذت ترتسم في نفسه صورة مجتمع إسماعيلي خالص أصبح نظاماً وأثبت أساساً من المجتمع الإسماعيلي الذي رآه في مصر ، وأخذ يفكر في الوسائل الكفيلة بتحقيق غايته ، وبدأت تتضح له خطوط السياسة الخطيرة التي اتبعها بعد ذلك ، والتي جعلت منه زعيم جمعية سرية من أخطر الجمعيات السرية التي عرفها التاريخ .

وقد نزل الحسن من السفينة في ثغر عكا ، وقصد منها إلى حاب ، وارتحل من حلب إلى بغداد ، وغادر بغداد إلى خوزستان وأصفهان وكرمان ، وهو عاكف على بث الدعوة وكسب الأنصار ، ورغم تحفظ الحسن وبراعته في اصطناع التقية أفلتت منه تصريحات تدل على بعض طموحه وعظيم جرأته ،

فقد اعترف لأحد أنصاره بأنه يعمل على هدم سلطان السلاجقة وتقويض دولتهم وقتل الوزير نظام الملك خصمه القديم وعدوه المبين .

ولم يكن الحسن الرجل الذى يكتفى بمجرد الدعوة ويقتصر عليها ، وإنما كانت الدعوة فى نظره مرحلة تمهيدية ، وقد مكنته رحلاته المتوالية وتنقلاته الكثيرة من أن يعرف طبيعة المقاطعات وسائر الأنحاء التى أظلمها نفوذ السلاجقة ، فأخذ يتحين الفرص للاستيلاء على قلعة « آلموت » المنيعه الشاهقة لوقوعها فى هضبات وعرة فى المنطقة الشمالية من إيران ، وقد تمكن من امتلاك هذه القلعة فى سنة ٤٨٣ كما قدمت ، واتخذها قاعدة لأعماله وبث دعوته فقوى بذلك نفوذه وعظمت مكانته ، واستفحل فى الوقت نفسه خطر دعوته .

وقد ظل الحسن يدعو للخليفة المستنصر الفاطمى طوال حكمه ، فلما مات هذا الخليفة فى سنة ٤٨٧ ، خرج الحسن وأشياعه على إمامة ابنه المستعلى وخلافته ، ونادوا بإمامة نزار الإبن الأكبر للمستنصر ، وأقنع الحسن أنصاره بأن نزاراً هو الإمام الحق ، وأن المستعلى قد اغتصب منه الإمامة والعرش ، ولما قتل الأمير نزار فى القاهرة سنة ٤٨٨ ظل الحسن يدعو له باعتباره من الأئمة المستورين ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية

لنزارية تعرف بالدعوة الحديدية ، ولما كان الحسن يريد من أتباعه الطاعة المطلقة والخضوع التام جعل عقيدة « الإمام المعصوم » ركناً هاماً من أركان دعوته ، وزادى بوجوب طاعة هذا الإمام المعصوم وطاعة نائبه أو حجته ، وبذلك استطاع الحسن أن يملك نفوس أنصاره ، ويوجههم التوجيه الذى يريد ، ويحملهم على تلبية مطالبه بغير مناقشة ولا مراجعة ولا تردد .

وجعل الحسن لرجال دعوته وأشياخ مذهبه مراتب ودرجات ، فالمرتبة الأولى مرتبة رئيس الدعوة ، وكان أصحابه يلقبونه بلقب « مولانا » و « سيدنا » ، واللقب الذى اشتهر به الحسن هو لقب « شيخ الجبل » ، والمرتبة الثانية هى مرتبة كبار الدعاة ، والمرتبة الثالثة مرتبة الدعاة ، وهم الذين يقومون بنشر مبادئ الدعوة الحديدية ، وكان يراعى فى اختيارهم أن يكونوا ممن يوثق بعقيدته ويطمأن إلى إخلاصه وطاعته ، وكان الحسن يشترط فى الداعى أن يكون بارعاً فى التشكيك ، عارفاً بأطوار النفوس وبصيراً بأحوال الناس ، والمرتبة الرابعة هى مرتبة الرفاق ، وهم الذين درسوا أصول الدعوة ولكنهم لم يؤمروا بنشرها ، ويختار الدعاة من بينهم بعد التجربة الفاحصة والاختيار الممحض ، وكانت المرتبة الخامسة مرتبة القدائين ، وهم الذين كان الحسن يستخدمهم فى قتل أعدائه ومنافسيه ، وكانوا لا يترددون فى التضحية بأنفسهم



في سبيل طاعته ، وقد أصبحوا في يد الحسن سلاباً فتاكاً وآلة انتقام رهيبة ، وقد ملأ بهم الحسن نفوس معاصريه خوفاً ورعباً . وعرف أفراد هذه الطبقة بالحرأة النادرة والصبر على مغالبة الصعاب وتجشم الأخطار ، وكان يختارهم الحسن من الشبان الأقوياء ، ويدربهم تدريباً خاصاً يجعلهم أهلاً للقيام بالحرث المنكرة التي كان يأمرهم بها ، وكانت المرتبة السادسة مرتبة اللاصقين وكان هؤلاء يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق إذاعة الدعوة ، وكانوا يدربون للدخول في مرتبة الفدائيين ، وكانت المرتبة السابعة هي مرتبة المستجيبين وهم العامة أو المؤمنون المبتدئون ، وقد جرى الحسن على طريقة الإسماعيلية في تقسيمه شيعته إلى سبع طبقات .

وجعل الحسن لدعوته النزارية سبع خطوات ، وقد أوضح معالم هذه الخطوات السبع للدعاة لكي يسترشدوا بها في استدراج الناس إلى الدخول في الدعوة ، وكانت الخطوة الأولى في هذه الخطوات السبع هي خطوة التفرس ، وهو التفتن لحالة المدعو وسبر غوره ، وكان الحسن ينصح رجاله باختيار العامة البسطاء ، والإعراض عن الجهلة الحمقى ، والمتقفين الأذكياء ، لأن الأولين لا يرجى منهم خير ، والمتقفين لا يسهل إقناعهم ولا يتيسر خضوعهم وإتقيادهم ، وخطوة التفرس كانت من

الخطوات الخطيرة في نشر الدعوة ، لأنها تستلزم معرفة بطبائع الناس وخبرة ودراية ، وفحصاً عن ذلك فهي الخطوة الأساسية ، والخطوة الثانية هي خطوة التأسيس ، وهو إشاعة الأمن والطمأنينة في نفس المدعو ، وذلك بتحييد ميوله وإطراء اتجاهاته واستحسان كل ما يصنع ، وبذلك يكتسب الداعي حب المدعو وعطفه وثقته ، والخطوة الثالثة بعد ذلك هي خطوة التشكيك وهي خطوة جريئة تقتضى قدرة على تفهم نفسية المدعو وتوهين عقيدته ، دون أن يتسرب إليه الشك في إخلاص الداعي أو في العقيدة الإسماعيلية ، ومتى شك المدعو في عقيدته تملكته الحيرة ودفعه حب الاستطلاع إلى التماس العون من الداعي ، وهنا يجد الداعي الفرصة مواتية للتمويه على المدعو واستدراجه إلى المذهب الإسماعيلي ، وتتبع هذه الخطوة خطوة التعليق ، وهي ترك المدعو حيناً من الزمن مزعزع العقيدة ، نهياً لوساوس الشكوك حتى يقوى « تطلعه » ويشتد تعطشه ، ويلقى مقادته إلى الداعي ليستنقذه من غول الشكوك ويبداء الحيرة . ويتبع ذلك خطوة التدليس ، وفي هذه الخطوة يكون المدعو قد وقع في الشبكة التي نصبها له الداعي ، وأصبح طوع أمره ورهن إشارته يؤمل على يديه الخير ، ويتلقى كلامه كأنه حقائق لا يرتفع إليها الشك ، ويستغل الداعي هذا الموقف فيسرف في الادعاءات ويكثر من

التليسات ، وينتقل بالمدعو بعد ذلك إلى الخطوة السادسة وهو خطوة التأسيس ، والمقصود بهذه الخطوة تثبيت المعلومات التي تلقاها المدعو في نفسه ، وهذه الخطوة مدرجة الوصول إلى الخطوة السابعة الأخيرة وهي مرتبة الخلع ، ومعنى الخلع أن المدعو قد انتزع انتزاعاً نهائياً من المذهب السني ، وأصبح إسماعيلياً راسخ العقيدة قوى الإيمان يعتمد عليه ، ويوثق به ، ولا يخشى ارتداده عن المذهب أو خيانتة لرؤسائه . وكان لعناية دعاة الإسماعيلية بمراعاة التدرج في هذه الخطوات أثرها القوى في جعل هذه الجمعية السرية العجيبة قوية الأسس ، متماسكة البنبان ، يدين أعضاؤها جميعاً بالولاء التام والطاعة المطلقة لرئيسهم الأعلى ، نائب الإمام المستور الحسن بن الصباح .

وقد تبين خطر هذه الجمعية السلطان ، ملكشاه ، وكاد ينجح في القضاء عليها ، لولا موته في سنة ٤٨٥ هـ ، واستغل الحسن الخلاف الذي وقع بين أبناء هذا السلطان على عرش أبيهم ، وما تبع ذلك من نشوب الحرب الأهلية بينهم ، فأخذ في امتلاك القلاع والحصون من السنين ، وكانت أعنف تلك الحروب الأهلية الحرب التي قامت بين الأخوين « بركيا روق » و « محمد » ابني السلطان ملكشاه ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد ظهر خطر خارجي هائل هدد دولة السلاجقة وكاد يعصف

بالعالم الإسلامى جميعه ، وهو هجوم الصليبيين على المشرق ،  
 وقد شغل ذلك دولة السلاجقة عن الانتباه للحسن وجماعته ،  
 فضاعف الحسن جهوده وأرسل دعائه إلى بلاد الشام ، واستولوا  
 بها - بعد جهود كبيرة - على كثير من القلاع الجبلية المنيعه .  
 وهناك عامل آخر كان له أثر كبير فى تزايد قوة الحسن ،  
 وامتداد سلطاته ، ونجاح دعوته ، وتعاضم نفوذه السياسى ،  
 وهذا العامل الهام هو الإرهاب ، فقد درج أتباع الحسن على  
 القتل غيلة فأرهبوا الملوك والوزراء والقواد ، حتى اضطروا  
 الكثيرون من الرؤساء والأمراء والسلاطين إلى مداراتهم اتقاءً  
 لشركهم ، وأصبح للحسن فى قصور الملوك ودواوينهم عيون  
 وجواسيس يوافونه بالأخبار ، ويطلعونه على حقائق الأحوال ،  
 ويخلصون فى خدمته ، ويعملون على توطيد نفوذه ، وعم الناس  
 الخوف من خناجر الفدائيين وفتكاتهم المروعة ، وفى ذلك  
 يقول الأصفهاني فى كتاب « تاريخ دولة آل سلجوق » « فلم يشعر  
 إلا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معادهم ،  
 وأخافوا السبل ، وأحالوا على الأكابر الأجل ، وكان الواحد  
 منهم يهجم على كثير ، وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم  
 يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة ، فصار  
 الناس فيهم فريقين ، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ،

ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادة ، فمن عاداهم خاف من فتكهم ، ومن سالمهم نسب إلى شركهم في شركهم . وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ، فأول ما بدأوا بقتل نظام الملك ، ثم اتسع الخرق ، وتفاقم الفتق ، ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف ، تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البريء السقم وتوفرت على التوقي الهمم <sup>(١)</sup> .

ولما طال الحرب بين السلطان محمد بن ملكشاه وبين أخيه السلطان بركياروق اشتد إيذاء إتباع الحسن للناس وصاروا يختطفون من لم يعتنق مذهبهم من الشوارع والطرقات ، وتعرضوا للحاج وفتكوا بهم ، وتحدوا الأمراء والوزراء . وقد روى ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٩٣ هجرية أن أحد الفدائيين قتل أميراً في مدينة الري بدار الوزير فخر الملك بن نظام الملك ، وقيل إن الرجل من أتباع الحسن ، فأحضر بين يدي فخر الملك فقال له « ويحك ! قتلت هذا الأمير في داري ، وهتكت حرمتي وأذهبت حشمتي ! فقال الباطني « وهل لك حرمة مهتوكة ودار مملوكة أو حشمة تمنع من الدماء المسفوكة ؟ » أو ما علمت أننا ستة نفر بعثنا إلى ستة لنقتلهم أحدهم أخوك ؟ قال « وهل أنا

---

(١) صفحة ٦٣ من كتاب تاريخ دولة آل سلجوق .



من جملتهم ؟ » فأجابه الفدائي « أنت أقل من أن تذكر أو نلوث  
سكاكيننا بدمك » .

وقد انضم إلى صفوف جماعة الحسن كثيرون من كبار  
رجال دولة السلاجقة ، وكان في بطانة السلطان بركياروق عدة  
من رجال الحسن ، والواقع أن السلطان بركياروق استعان برجال  
الحسن في محاربة أخيه السلطان محمد ، ولما تم له الانتصار  
قلب لهم ظهر المجن وقاومهم ليدفع عن نفسه من ناحية تهمة  
الشك في عقيدته ، ومن ناحية أخرى اتقاء لخطرهم ، وإبقاء  
على سلطانه ، فانتقم منه النزاريون بقتل وزيره على أبواب  
أصفهان ، على أن قاعدتهم وهي قلعة « الموت » لم تستهدف في  
عهد السلطان بركياروق ( ٤٨٧ - ٤٩٨ هجرية ) للخطر الذي  
استهدفت له في حكم السلطان ملكشاه

وقد كان السلطان محمد ( ٤٩٨ - ٥١١ ) أشد وطأة على  
طائفة الإسماعيلية النزارية من أخيه بركياروق ، وقد استطاع  
أن يتغلب على ابن عطاش صاحب قلعة شاه دز ووجه كل  
قواه إلى قلعة « الموت » وحاصرتها جيوشه حصاراً شديداً ، وقتل  
منهم مقتلة عظيمة ، وكادت تقع قلعة « الموت » في يده لولا  
هجوم الشتاء وسقوط الثلوج ، وعمل الحسن على الانتقام من  
ضياء الملك وزير السلطان محمد ، فشييع وراءه جماعة من

الفدائيين أصابوه بجروح شفى منها بعد علاج طويل ، وعناية متصلة من الأطباء ، ولم يثن إخفاق هذه الحملة عزم السلطان محمد ، فقد أعد جيشاً آخر لمهاجمة قلعة « ألموت » واختار له قائداً بارعاً من أقدر قواده ، وأصدقهم إيماناً وأشدهم كراهة للجماعة الإسماعيلية التزارية ، وقد ضيق هذا القائد الحصار على الحسن حتى ضاق به ذرعاً وساءت أحواله ، وقلت الأقوات في القلعة ، ولكن الحظ لم يتخل عن الحسن في هذه المحنة الشديدة فقد مات السلطان محمد في سنة ٥١١ هـ ، وخلفه ابنه السلطان محمود ، وقد تمكن وزيره الدرگزيني من حمله على استدعاء الجيش المحاصر لقلعة « ألموت » ، وكان هذا الرجل يدين بالمذهب الإسماعيلي ، وهكذا رفع الحصار عن القلعة ، وتمكن الوزير الدرگزيني من إيغار قلب السلطان محمود على ذلك القائد الهمام الذي شدد الحصار على قلعة « ألموت » حتى كادت تسقط في يده ، فأمر السلطان بقتله ، وكان لانتصار الحسن في هذه الجولة أثر كبير في توطيد مكانته وإعلاء شأنه ، واستقرار نفوذه ، واتساع سلطانه ، وتزايد هيئته .

وأراد السلطان سنجر أن ينهج نهج أخيه السلطان محمد في مقاومة الإسماعيلية التزارية ، وحاول حصار قلعة « ألموت » وقد هدده الحسن برسالة يقول فيها « إنه على الرغم من أني أعيش

فوق تلك الصخرة — « الموت » — فإن أولئك الذين في خدمتك هم طوع أمري ورهن إشارتي » ، فتخلى السلطان سنجر عن حصار القلعة ، وعقد مع الحسن صلحاً دلت شروطه على مبلغ قوة الحسن وعظم سطوته ، ومدى ضعف السلطان سنجر وتخاذله وتراجعته ، وعاب الناس على السلطان سنجر هذا التصرف المزرى بكرامته ، وقد استعان السلطان سنجر بعد ذلك بالإسماعيلية النزارية في مقاومة منافسيه ، والخلاص من أعدائه ، وأصبحت الطائفة التي يترعّمها الحسن قوة يخشى بأسها وترجى مساعدتها ، ولا يجترئ أحد من سلاطين السلاجقة أو أمراءهم على أن يمسها بسوء ، ولما مات الحسن عن سن عالية في سنة ٥١٨ هـ ترك لخلفائه دولة ثابتة الدعائم مزودة بأسباب البقاء ، موفورة القدرة على مغالبة الحوادث . وواضح من سيرة الحسن ومواقفه في مراحل حياته المختلفة الحافلة أنه كان رجلاً بعيد الغور ، قوى الشخصية ، من هؤلاء الرجال النواذر الجبابرة العتاة ، الذين لا يعرفون — في سبيل مطامعهم — التفريق بين الخير والشر ، أو الحلال والحرام ، فالخير والحلال عندهم هو كل ما أعانهم على تحقيق غاياتهم ، والشر والحرام هو كل ما اعترض طريقهم ، وحال دون تحقيق مطامعهم . فهو من طراز « شيزارى بورچيا » الذى اتخذه مكليافلى أنموذجاً لأميره ، ومن طراز « روبسبير » فى استباحته

قتل كل من خالف مذهبه ، وانحرف عن عقيدته . وهو في سبيل نجاح سياسته لم يعف عن اغتيال الوزراء والعلماء وغيرهم من أتباع المذهب السني ، وفي سبيل مبادئه لم يتورع عن قتل أحد أبنائه ، لاثامه بشرب الخمر والزنا ، وطرد من قلعة « الموت » رجلا من أنصاره لأنه كان يتسلى بمزماره ، وقتل ابنه الآخر لأنه اتهم بالاشتراك في قتل أحد دعائه المقربين ، واختار لخلافته رجلا من كبار دعائه كان يثق به ويقدره لإخلاصه في الدعوة وتفانيه في حب المذهب الإسماعيلي النزاری ، وهذا الرجل هو « الكيا بزرجميد » . وقد عاش الحسن في قلعة « الموت » في عزلة رهيبة وخلوة صامته ، زاهداً قانعاً لا يعرف البذخ ولا الترف وبرغم نفوذه وثروته نشأ بناته ونساءه على كسب حياتهن عن طريق الغزل ، ويروى أنه لم يخرج من داره في « الموت » قاعدة / حكمه سوى مرتين ، وكان يقضى وقته في الصلاة والتأليف في أصول العقيدة الإسماعيلية ، أو الرد على كتب أهل السنة ، وقد ذكر الشهرستاني في كتاب « الملل والنحل » خلاصة بعض رسائله الفلسفية الكلامية التي وضعها باللغة الفارسية ، وهي تدل على قدرته الجدلوية وتعمقه في فهم أصول مذهبه ، والرجل الذي يرد جحافل السلاجقة عن قلعته ، ويدبر الأمور هذا التدبير المحكم الدقيق ، وينظم جماعته هذا التنظيم البارع الطريف ويوطد

دولته توطيداً ويرسى قواعدها إرساءً ويجمع مقاليد الأمور كلها في يده القوية ، ويسهر على صيانتها بعين لا تغفل ولا تنام ، وهو في عزلته النائية ، ومجثمه المنيع لا بد أنه كان سياسياً من الطراز الأول ، وزعيماً نادر المثال ، ورئيساً من رؤساء الجمعيات السرية الأقوياء الشكيمة الراجحي الرأي الثاقبي الفراسة . وقد ظلت الدولة التي أسسها قائمة حتى اكتسحها هجوم المغول الجارف فسقطت في سنة ٦٥٤ هجرية ، بعد سقوط دولة خوارزم شاه وقبل سقوط الدولة العباسية بعامين ، أي أن الدولة التي أسسها الحسن الصباح أو الجمعية السرية التي أنشأها بتدبيراته العجيبة وأساليبه المدهشة ، استطاعت أن تعيش وتثبت للأحداث الجسام والتقلبات الخطيرة قرابة قرنين من الزمان .



## طائفة الخناقين

في القصيدة الهمزية البديعة التي عاتب بها الشاعر الكبير ابن الرومي صديقه أبا القاسم التّوّزى الشطرنجي ، يقول ابن الرومي متحدثاً عن براعة صديقه في لعب الشطرنج ، ومتغنياً بها لك مكر يدب في القوم أخفى من ديب الغناء في الأعضاء أو مسير القضاء في ظلم الغي ب إلى من يريده بالتواء وكذلك كان مكر أفراد هذه الطائفة في ارتكاب الجرائم وإزهاق النفوس ، فقد بلغ من براعتهم في التخفي والاستتار وإخفاء آثار الجرائم وإزالة معالمها إلى حد أن أمرهم لم يكشف وحقيقة إسرافهم في انتهاب الأرواح لم تعرف إلا بعد أن فتكوا بحياة الألوف من أهل الهند ، وكان العضو في هذه الجمعية السرية الرهيبة يفخر بأنه وحده أودى بحياة من لا يقلون عن ستمائة من الناس ، دون أن يثير أية شبهة تدعو إلى التّظنن في انتسابه لهذه الجمعية الخفية ، سواء في نفس زوجته أو نفوس سائر أفراد أسرته ، وواضح من ذلك أن هذه الطائفة الدينية الإجرامية من أحق الجمعيات بأن توصف بالسرية.

ولقد ظل القضاة الإنجليز في الهند حيناً من الزمن وهم يرفضون الاعتقاد بوجود مثل هذه الجمعية . وحتى عند ما تواترت الأدلة وتواتت القرائن على وجود مثل هذه الجمعية كان الشك ما زال يخالج نفوسهم ، وذلك لغرابة الأسلوب الذي جرى عليه أفراد هذه الجمعية السرية حتى في الهند أرض الغرائب وبلاد العجائب .

كان أفراد هذه الطائفة الإجرامية يسلبون الفريسة بعد القضاء عليها ، وذلك بالرغم من أن القتل كان المقصود به قبل كل شيء إرضاء الإلهة « كالى » والتماس عونها ، وكان هذا العنصر الدينى هو مساك الجماعة ، ومصدر قوتها ، وسر نجاحها في إصابة أهدافها ، ولا تعرف جمعية سياسية أو إجرامية أخفت أمرها وحافظت على سرها زمناً طويلاً مثل هذه الجمعية ، فتاريخ هذه الطائفة يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، إذ جاءت إلى أرباض مدينة دلهى سبع قبائل من البدو الرحل المسلمين ، واستهوتهم عبادة الهنود لإلهتهم « كالى » فنذروا أنفسهم لعبادتها ، مع احتفاظهم بديانتهم الأصلية . وكانت هذه الإلهة إلهة التدمير ، وزوجة الإله العظيم « سيوا » ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن من أوائل موجدى هذه الطائفة جماعة من الإسماعيلية النزارية الذين فروا إلى الهند بعد سقوط قلعة « آلموت »

فى يد المغول وتخريبها ، ومهما كان من أمر هذه الجمعية فقد ظلت فى أكنان الخفاء حتى كشف سرها فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبالرغم من يقظة جواسيس الإنجليز فى الهند ، فإنهم لم يخطر ببالهم الظن بوجود مثل هذه الطائفة حتى سنة ١٧٩٩ ، وأول ما أثار الشبهة اختفاء عدد كبير من الجنود الوطنيين الذين كان يرخص لهم بإجازات لزيارة أهلهم ، وحينما كان هؤلاء الجنود لا يرجعون إلى فرقهم كان يظن فى بادئ الأمر أنهم قد هربوا من خدمة الجيش ، والواقع أن هؤلاء الجنود كانوا يذهبون فريسة سهلة صالحة لطائفة الخناقين ، فقد كانوا يسافرون فرادى أو فئات قليلة وجيوبهم عامرة بالنقود ، وكان أهلهم لا يعرفون شيئاً عن قدومهم ولا يتوقعونه ، ولم تكن الحكومة تجد فى البحث عنهم بعد اختفائهم ، وتكتفى بعدئذهم هاربين من الهندية .

ولكن الحقائق أخذت تتكشف ، ومع ذلك فإنه بعد انقضاء ربع قرن على كشف وجود هذه الجمعية الخفية كانت المعلومات الدقيقة المستمدة من التقارير تثبت وجود عشرة آلاف من الخناقين ، وكل واحد منهم لا يقل ضحاياه فى العام عن ثلاث . وأنشأت الحكومة الهندية إدارة خاصة لمقاومة الخناقين ، وسرعان ما امتلأت بهم السجون وعنى اللورد « وليام بنتنك » بالأمر غناية خاصة ، وبذل غاية ما فى وسعه للقضاء على هذه

الطائفة ، واستعان بكل وسيلة ، وبرغم ما اتخذ من وسائل وبذل من جهود فإنه لم يوفق في القضاء على هذه الطائفة إلا في سنة ١٨٣٥ ، ومع ذلك فإنه لم يقض على الطائفة قضاء تاماً .

ولما كان أفراد هذه الجمعية لا يحسنون عملاً آخر ليعيشوا منه ، فقد أنشأت لهم الحكومة مدارس صناعية في السجون والمعتقلات ، وكثيرون منهم نبذوا حياة التنقل والحبوبان واستقروا في القرى ، وشغلوا أنفسهم بفلاحة الأرض في هدوء وسلام ، وكانوا يمتازون بين سكان القرى بدمثة الأخلاق وجودة الفهم . وفي حالات كثيرة كان عمداء القرى يفيثونهم ظل رعايتهم ويحمونهم ويتسترون عليهم ، وكانوا في مقابل ذلك يعطونهم نصيباً من نهابهم وأسلابهم ، وكان بعض رجال الشرطة يمارسون عمل الخناقين في أوقات فراغهم ، والأعجب من ذلك أن بعض الخناقين أصبحوا عمداء في القرى ، وارتفع مقامهم وعظم نفوذهم ، دون أن يثير ذلك أقل شبهة ! وكان ذلك كله يضاعف من متاعب الحكومة ويجعل محاولتها القضاء على هذه العصابة شاقة مجهدة .

وكانت الجمعية تجمع الهندي المسلم والهندي الهندوسي في صعيد واحد ، فيتحابان ويتصافيان ويتعاونان على الشر والإثم ، وكان للجماعة علامات وشارات يتعارفون بها ، وكانت هذه الشارات والعلامات موحدة في جميع أنحاء الهند ، ولذا كان الفرد

من أفراد الجمعية يجد منزلاً رجباً وأصحاباً بأصحاب أينما حل ، وكانت حياة الخناقين — إذا استثنينا منها ممارسة الخنق — حياة فاضلة مثالية ، وكان ذلك يثير تعجب حراس السجون ورقباء المعتقلات ، وأحد المسجونين من أفراد هذه الجمعية — وقد انقلب فيما بعد شاهد ملك على الجمعية ودل على نحو مائتين من أفراد العصابة — كان رجلاً وديعاً محبوباً حسن السمعة مقبول الصورة ، وقد اعترف مفاخرأ بأنه قتل خمس نساء وأكثر من مائة رجل ، وكان يتحدث عن أعماله بحماسة قوية ، لا تلاثم مظهره الهادئ ولا سلوكه البريء من العيوب في ظاهره ، وكانت تظهر قوة إيمانهم بإلهتهم المروعة في الطريقة التي كانوا يقابلون بها الحكم عليهم بالموت ، فقد كانوا يلقون الموت بحماسة ، مقدمين حياتهم للإلهة « كالى » معبودتهم بالسهولة نفسها التي كانوا يسلبون بها حياة الغير ، وكان الشيء الوحيد الذى يزعجهم ويشير خواطرم هو خوفهم أن يموتوا بالسيف أو بالرصاص ، وكانوا لا يكفون عن الرجاء والتوسل ليقتلوا خنقاً أو شنقاً .

وسبب ذلك الأسطورة التي ترجع إليها عقيدة الخناقين ، ففي بدء وجود العالم — كما يرى الهندوس — كان هناك قوتان هائلتان منبعثتان من الكائن الأسمى ، وكانت هاتان القوتان في صراع دائم ، فكانت القوة الخالقة تعمل على ملء العالم بالسكان



فى سرعة لا تستطيع ملاحقتها القوة المدمرة ، وكانت القوة الخالقة تتمثل فى الإله « فشنو » والقوة المدمرة تتمثل فى الإله « سيوا » ، فعقدت الإلاهة « كالى » زوجة الإله « سيوا » العزم على معاونة زوجها فى التدمير والإبادة ، ولتحقيق هذه الغاية أنشأت تمثالاً ، ونفخت فيه من روحها ، وجمعت عبادها وأطلقت عليهم اسم « الخناقين » ، وعلمتهم كيف يقتلون الصورة التى أوجدتها دون إراقة دم ، وكانت تأخذهم باتباع هذه الطريقة فى القتل لأن إراقة الدماء تبعث الحياة من جديد .

وكانت هذه الأسطورة تفرض عليهم اتباع طريقة القتل خنقاً ، وتجعل للخناق أسمى منزلة بين المنتسبين إلى جماعة الخناقين ، وكان الخناق لا يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد تدرج فى مراتب الجمعية وتدريب طويل ، وكان يكلف فى المرحلة الأولى حفر القبور لمواراة جثث الضحايا ، وإذا تجاوز هذه المرحلة ، عمل دليلاً أو طليعة للخناقين ، يرشدهم إلى ميادين العمل ، ويهيئ لهم فرصة ممارسة الخنق ، وكان للتقدم من درجة إلى درجة أسمى مراسيم وشعائر وحفلات تستغرق أياماً أربعة وكان المستجيب فى خلال تلك الأيام يقتصر على تناول اللبن ، ويكثر من الصلاة والدعاء للإلاهة « كالى » ، ثم يوضع فوق الأرض صليب من الخشب ويظل يمارس فن الخنق على هذا

الصليب الخشبي حتى اليوم الخامس ، وفي ذلك اليوم يعطيه الكاهن الأحبولة القاتلة ، وقد غسلت بالماء المقدس ومسحت بالزيت ، ويتبع ذلك إقامة الحفلات الدينية ، ويقسم المستجيب أقساماً مغلظة بأنه يكتم السر كتماناً تاماً ، ويعمل بلا انقطاع ولا تردد على هلاك الجنس البشري وإبادته ، وكانت الأسطورة القديمة تقول ' إن الإلهة « كالى » تعد أتباعها بأنها تهديهم وترشدتهم بطريق النذر والعلامات والطوابع ، ولذا كان من أهم ما يمارسه الخناق معرفة النذر ومطالعة الطوابع وقراءة العلامات ، وكان طيران الطيور ، واختلاج الشاة الحديثة الذبح ، وإلقاء الفأس من العلامات التي تعد بالتجاح أو الإخفاق ، وبعض هذه العلامات كانت تستشار وتتبع قبل القيام بأية حملة من الحملات ، فإذا عبر طائر الطريق من الشمال إلى اليمين عند قيام الحملة كان ذلك سبباً كافياً لإرجاء الحملة وإنقاذ حياة الضحايا البريئة ، ولما كانت حامية الطائفة من النساء كان قتل النساء من المسائل المحرمة المكروهة ، وكانت تقاليد الطائفة تعنى كذلك من القتل المتسولين والغسالين والراقصين والموسيقيين والكناسين والحدادين والنجارين والشيوخ المتقدمين في السن ، والمشوهين والبرص ، وكان الخناقون القدامى يعزرون ما أصاب الطائفة في أواخر عهدها من الضعف والانحلال إلى مخالفة هذه

التقاليد ، التماساً للكسب ، وفي زعمهم أن الضعف بدأ يدب في بنية الطائفة منذ إقدامها على قتل أول امرأة .

وفي الأساطير أن الإلهة « كالى » كانت في بادئ الأمر تتولى مواراة جثث الضحايا ، وفي ذات يوم حاولت جماعة من الخناقين أن تتغفل الإلهة « كالى » لتهتدى إلى سر إخفائها الضحايا ، ولكنها فطنت لتجسسهم وأدركت محاولتهم استطلاع سرها فأمرت بأن يقوم الخناقون في المستقبل بدفن جثث الضحايا تأديباً لهم وانتقاماً منهم ، وتركت لهم معولها المقدس لينتفعوا به في مباشرة عملية الدفن .

وكانت الخيانة والغدر هي طريقتهما المثلى في البطش بضحاياهم ، وكانوا يؤثرون أن يغتالوا ضحاياهم وهم مستغرقون في النوم ، وكانوا يستعملون كل حيلة حتى يصادفوا منهم غرة ، فينتقضوا عليهم ويخنقوهم ، وكانوا يظهرن بمظهر التجار الميسورين ، أو الصناع العاملين الذين يؤمن جانبهم ولا يخشى سرهم ، ويتنقلون في البلاد جماعات ما بين العشرة والعشرين من الأفراد ، وربما وصل عددهم في بعض الأحيان إلى الخمسين ، وكانوا يغتنمون الفرص لمخالطة المسافرين ومرافقة القوافل ، وربما سارت منهم عصاباتان على مسافة متقاربة ، فإذا أثارت إحداها شبهة المسافرين في القافلة تقدمت العصاة الأخرى وتظاهرت

بمشاركة المسافرين في الاشتباه بأمر العصاة الأولى ، تغريراً بهم واستدراجاً لهم ، حتى يطمئنوا إلى رجال العصاة ويشقوا بهم ، فإذا لاحت لهم الفرصة بعد ذلك أوسعوهم قتلاً بطريقة الخنق ، وسلبوا أموالهم وأمتعتهم ودفنوا جثثهم .

وكان اغتيال المسافر الذي يمضي في طريقه منفرداً يقتضى وجود ثلاثة أو اثنين من الخناقين ، فالأول يزحف خلف المسافر ويطرح قماشاً من الحرير حول عنق الضحية ويقبض على طرفه ، وما أسرع ما يندفع شريكه إلى الأمام ، ويمسك بالطرف الآخر ، ويضغط على رأس المسافر ، فتصبح عملية الخنق سهلة ميسورة ، وإذا كان هناك شريك ثالث فإنه يقبض على ساقى الفريسة ويلقيه على الأرض ، وكان بعض الخناقين البارعين المدربين يفخر بأنه يستطيع خنق رجل بمفرده ، والخناق الممتاز هو الذى كان يستطيع أن ينتزع الرجل من فوق صهوة جواده ويخنقه ، وكان هذا الامتياز يسبغ الشرف على أسرة الخناق ويرفع من شأنه ويبقى ذكره أجيالاً بعد موته . وكان من اللازم قتل المسافرين في القافلة جميعهم ، مهما كان عددهم ، خشية أن يبقى أحد منهم حياً ويتحدث عن سر الجمعية ، وكانوا يستثنون من ذلك الأطفال ، يأخذونهم أسرى ، ويلقنونهم مبادئ الطائفة ويبدأون تدريبهم في العاشرة أو الثانية عشرة ، ولكنهم

لا يسمحون لهم بالاشتراك فى الحملات إلا إذا بلغوا الثامنة عشرة أو العشرين .

. ومن تقاليدهم أنهم كانوا لا يقتلون النمر ، لا اعتقادهم أن قتل النمر علامة من علامات الموت الباكر ، ويبدو أنه كان هناك شعور بالزمالة بينهم وبين النمر ، وكانوا يعتقدون أن النمر لا يعتدى على الخناق إلا إذا كان قد خدع أحد زملائه فى اقتسام الأسلاب .

وبعض الخناقين كانوا لا يعبأون بالتقاليد ، فلا يعفون من القتل رجلاً ولا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً ، سواء أكان حداثاً أم نجاراً أو كناساً أو مغنياً ، ولا يحفلون بقراءة الطوابع ومراقبة العلامات والنذر ، وكانوا يسوغون هذا الخروج على التقاليد ومخالفتهم للواجبات بقولهم إنهم قد أحسنوا الصنيع ، واستنقذوا حياة الضحايا من عذاب الدنيا وشقاء الحياة ، وأسرعوا بهم إلى جنة الخلد ، وفعيم البقاء ، ومن أجل ذلك لا يعد عملهم من الخطايا ، ولا يركبهم الإثم ، ولا يلحقهم اللوم !

وذكرى جمعية الخناقين فى الهند من الذكريات المؤلمة المرعبة ، ويقال إنه لما ضيقت الحكومة عليهم الخناق وجدت فى محاربتهم والقضاء عليهم ، بلأوا إلى الاستعانة بدس السم لضحاياهم حيناً من الزمن ، وكان آخر خناق يقتل من أجل ارتكاب هذه الجريمة

في سنة ١٨٨٢ ، وبعض حوادث القتل المجهولة في بلاد الهند من المحتمل — في رأى بعض مؤرخي الجمعيات السرية — أن يكون القائمون بها من بقايا عباد هذه الإلاهة « كالى » المخيفة ، التي يصورونها حاملة في جيدها عقداً من الجماجم البشرية مستطيلاً متدلياً حتى ركبتها .



## جمعية الجاردونا

انطلق جنود الملك فرديناند الكاثوليكي ملك أرجون وقشتالة يطاردون في التلال الموحشة والودى العميقة عصابات اللصوص والسلايين ، بعد أن أغضت العدالة عنهم سنوات طويلة ، وقد استيقظ ضمير الدولة بعد طول الرقاد ، فأصدر الملك الجبار أمره إلى جنوده باستتصال شأفة اللصوص وقطع دابر العصابات .

وكانت الجريمة الكبرى التي ارتكبتها عصابات اللصوص أخيراً هي رفضها أن تؤدي الضريبة للقساوسة ورجال مجالس التفتيش والخزينة الملكية ، وكانت عصابات اللصوص قد ملّت طلبات أصحاب السلطان الكبيرة ، فقد كانوا يتشاغلون عن جرائم اللصوص في مقابل أن يفوزوا بنصيب الأسد مما يجمعه هؤلاء اللصوص بكدهم وسعة حيلتهم وإقدامهم على المكاره .

فثار اللصوص وتمردوا وأمسكوا عن الدفع وساء لهم أن تعترض الحكومة نشاطهم ، وتبذل جهدها للحد من حريتهم ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وعقد رؤساؤهم اجتماعاً خطيراً في أحد الأودية المنعزلة الوعرة المسالك وتمخض هذا الاجتماع الخطير فولد جمعية « الجاردونا » .

وقبل عهد الملك فرديناند بزمن طويل ، كانت عصابات  
الأشرار والمجرمين تجوب البلاد الإسبانية ، وتفعل الأفاعيل ،  
وترتكب الكبائر ، وكان أفرادها يختصون بقايا المسلمين في إسبانيا  
بالنصيب الأوفر من النهب والسلب وسوء المعاملة ، ولما أراد الملك  
فرديناند أن يطرد العرب من إسبانيا ويقضى عليهم القضاء المبرم ،  
أنصوى تحت رايته السلابون واللصوص والمجرمون وسفاكو الدماء ،  
وأقبلوا عليه من كل فج من فجاج إسبانيا ، ولم يقدر الملك  
خطورة الاستعانة بأمثال هؤلاء المجرمين الممسوخين ، وبعد انتصار  
الملك على العرب وإجلالهم عن غرناطة لم يفكر في طريقة  
صالحة للخلاص من هؤلاء اللصوص والمجرمين وترك الأمور  
تجرى في مجاريها . فعادوا إلى حالتهم السابقة لاشتراكهم في  
معركة إبادة العرب واليهود ، وقد اكتسبوا في ميادين الوغى خبرة  
ودربة ، ولذلك عادوا إلى سيرتهم القديمة ، وهم أعظم قوة وأشد  
بأساً ، وهكذا أصبح هؤلاء الصليبيون أحذق بالطعان وأدرب  
وأكثر عدداً وأحسن نظاماً ، والغريب من أمرهم أن الكثيرين  
منهم أصبحوا حماة مأجورين لليهود والعرب المدجنين <sup>(١)</sup> الذين  
ارتدوا عن دينهم حرصاً على أوطانهم وإبقاء على مصالحهم ،

( ١ ) المدجنون أو أهل الدجن كلمة أطلقت على مسلمي الأندلس الذين  
دخلوا في طاعة الملوك المسيحيين واعترفوا بهم

أو خشية الريب والمطاردة ، وكان هؤلاء جميعاً من الأغنياء  
الميسورين ، وقد أطلق عليهم الإسبانيون اسم « الخنازير »  
وبإنشاء جمعية الجاردونا قوى أمر عصابات اللصوص  
والمجرمين وأصبح رجال العصابات لا يقلون شأنًا ومكانة عن رجال  
مجالس التفتيش ، وكان لهم أصدقاء في البلاط الملكي يعطفون  
عليهم ويشجعونهم ، ولذا انتعشت أحوالهم ، ونبه شأنهم ،  
واستحس الناس الخوف منهم .

واتخذت الجمعية مدينة إشبيلية مقراً لها ، واتفق كبار  
أعضائها على وضع كلمات السر الخاصة بها وابتكار الرموز  
والإشارات المناسبة ؛ ووضع قواعد تنظيم الحفلات وطرائق  
الانضمام إلى الجمعية ووسائل تدريب الأعضاء وتشجيعهم أو  
معاقتهم وتأديبهم ، وقد وضعوا للجمعية نظاماً صارماً دقيقاً ،  
ولذا كانت حملات النهب والسلب والإتلاف والإحراق والقتل  
التي تنظمها الجمعية تمتاز بدقة النظام ، وإحكام الخطة ،  
وتحقيق الأغراض المنشودة ، وحتى المتسولون في العواصم الكبيرة  
كانوا لا يستطيعون مباشرة مهنتهم إلا بإذن من الجمعية .

كانت هذه الجماعة جمعية إجرامية محضة ، غرضها الأصيل  
هو الإجرام ، وكانت الجمعية مستعدة للقيام بأية جريمة لقاء  
مقدار من المال يتناسب مع حظ الجريمة من الصغراً والضخامة ،

وكان في قائمة جرائمها القتل والسرقة وتشويه الوجه أو بتر أحد الأعضاء أو شهادة الزور ، أو خطف الأطفال ، أو اختطاف النساء لأى غرض كان أو حمل أحد الحصوم إلى إحدى السفن وبيعه ببيع الرقيق ، وحرق المنازل وأهراء المحاصيل ، وكان لكل جريمة من هذه الجرائم وأمثالها تعريفه معينة ، وكانت الجمعية تنى بوعدها ولا تقصر في ارتكاب الجريمة المطلوبة متى تقاضت الثمن ، وكانت مجالس التفتيش من أحسن عملاء الجمعية ، فقد دلت سجلات الجمعية التي عثر عليها أن مجالس التفتيش قد دفعت للجمعية ما يربو على ربع مليون من الفرنكات في خلال سنوات قلائل للقيام ببعض الجرائم الخارجة عن نطاق أعمال مجالس التفتيش الرسمية ، مع اتساع نطاق تلك الأعمال وشمورها ، ولكي تؤثر الجمعية في نفوس العامة وتستميلهم أوجدت أسطورة مضمونها أن السيدة مريم العذراء زارت في جبال الشارات المتأبدة ناسكاً طاعناً في السن اسمه « أبو لينير » وبعد أن مسحته بالزيت وأعطته زراً منتزعا من ثوب ابنها السماوى اختفت تاركة وراءها عبيراً عطرياً متضوعاً قوى الشذى وقد أوجد هذا الناسك جمعية الجارديونا بعد أن كسب لها الحق المقدس في السرقة والقتل ! وقد جعلت الجمعية لأتباعها مراتب ودرجات ، فالمرتبة الدينية — وكانت تسمى مرتبة الماعز — كانت تشمل المسيحيين

الحدد الذين يتولون الأعمال الحقيمة ، وكانت المرتبة التي تسمو على ذلك هي مرتبة « الأستار » وهي مرتبة النساء الخادومات اللواتي كن يلتحقن بخدمة البيوت ليصبحن عيوناً للجمعية ، يزودنها بالأسرار المجهولة والمعلومات الخفية ، وكانت الجمعية تتخذ النساء الحميلات أو الصغيرات السن شبكة لاستدراج الضحايا ، وتطلق عليهن اسم « الفاتنات » ، وتتخذ الشيوخ المسنين الحسنى السمى والظاهرى المهابة للتجسس فى الطرقات والكنائس لأن شعورهم البيض وما يبدو عليهم من وقار السن وهدوء الشيخوخة يبعد عنهم الشبهة ، ويدعو إلى الثقة بهم والاطمئنان إليهم ، وكان يطلق عليهم اسم المنافخ « ، لأنهم كانوا يهمسون فى آذان رؤساء الجمعية بالأسرار النافعة والمعلومات المفيدة ، أما رجال الجمعية الذين كان يعتمد عليهم فى الهجوم على المسافرين وأمثال ذلك من الفعال فإنهم كانوا يطلقون عليهم اسم « المصارعين » ، ويتلو ذلك طائفة الرؤساء الكبار ، وعلى رأس الجمعية الرئيس الأكبر الذى يدين له الجميع بالطاعة ، ويصدرون عن رأيه ، وقد شاء الحظ الحسن لهذه الجمعية أن تجد لها مؤرخاً من أصدق الرواة وأعظم الكتاب وهو الكاتب الإشباني العبقري « سرفانتيز » مؤلف رواية دون كيشوت الخالدة ، فقد وصف لنا هذا الكاتب الفذ فى إحدى قصص

كتابه المسمى « قصص مثالية » وهى القصة المسماة « رينكونيت وكورتاديللا » ، الكثير من أحوال هذه الجمعية وصفاً صادقاً دقيقاً يدل على قوة ملاحظته وسعة معرفته .

يحدثنا « سرفانتيز » فى هذه القصة عن غلامين يافعين أحدهما فى الرابعة عشرة من عمره والآخر فى السابعة عشرة وهما غلامان خبيثان متشردان ، وقد تقاذفت بهما القلوات ، حتى تلاقيا فى إشبيلية أشعثين أغبرين وأخذوا فى ممارسة المهنة التى لم يتعلما غيرها ، وهى مهنة السرقة والاحتيال ، ولم يخف حضور هذين الغلامين اللامعين - رنكون وكورتادو - عن عيون غلمان إشبيلية الذين كانوا يحترفون السرقة مثلهما ، وقد استطاع أحد هؤلاء الغلمان أن يفاجئ الغلامين القادمين وهما يقومان بالسرقة والاحتيال ، وبدلاً من أن يكشف أمرهما ويدل عليهما ويشهر بهما هناهما لما أظهراه من براعة حيلة وخفة يد ثم وجه إليهما هذا السؤال وهو « هل سويتما الأمر مع السيد مونوبوديو وأديتما له الضريبة ؟ » فعجب الغلامان لهذا السؤال ، وأدهشتهما فكرة أداء ضريبة عن السرقات ، وبدأ لهما فى هذا الأمر ما يثير الضحك ويبعث على الفكاهة ، ولكن زميلهما الحديد سرعان ما أوضح لهما حقيقة الأمر ، وبين لهما أنهما إذا كانا يرغبان حقاً فى البقاء بإشبيلية وممارسة السرقة والاحتيال فلا معدى لهما



عن تسجيل اسميهما عند السيد مونوپوديو ، وأنهما كلما أسرعنا إلى ذلك كان ذلك أدعى لطول بقاءهما ، ثم أشار لهما إشارة معبرة جعلت المعنى الذى قصده واضحاً جلياً ، واستبان لهما أن لصوص إشبيلية جميعهم يعدون السيد مونوپوديو أباً لهم ورئيساً لجماعتهم وحامياً لهم .

وعزم أن يكون وكورتادو على أن يذهب إلى مونوپوديو ويقدم له الطاعة ويقسم أمامه يمين الولاء ، ولما علم مونوپوديو بما أبداه الغلامان من براعة فى السرقة والاحتيال وافق على إدخالهما فى الجمعية عضوين ممتازين ، وأعفاهما من أعمال السنة التجريبية التى كانت تفرض على الأعضاء المستجدين .

وكان مونوپوديو يضيف ما يقدمه كل عضو من أعضاء الجمعية إلى الرصيد المشترك الذى كان يكافئ منه الأعضاء حسب كفاية كل عضو ، وعلى قدر انتفاع الجمعية بأعماله ، ولتقن الغلامان المصطلحات الخاصة بالجمعية ، ووفقاً على قوانينها وشاراتها ورموزها ، وعرفا الفروع الأخرى لجمعية الجارديونا ، وعلمنا كذلك أن مقداراً كبيراً من دخل الجمعية مستمد مما يدفع لها لقاء قيام الأعضاء بطعن من يكلفون طعنه أو بإغراق من يعهد إليهم فى إغراقه ، أو بخطف من يدفع للجمعية ثمن خطفه ، أو بصفع من يرى الاكتفاء بصفعه على

وجهه ، وما إلى ذلك من الأعمال السارة الممتعة !  
 وكانت العلاقة بين الجمعية وبين الشرط علاقة ودية للغاية ،  
 وبطبيعة الحال كانت الجمعية تدفع ثمناً لهذه العلاقة الأكيدة  
 الودية ، وكانت الجمعية لذلك لا تغفل عن مساعدة القضاة  
 والموظفين لتضمن الاستعانة بهم ، وكان جزء كبير من الدخل  
 ينفق من أجل روح المتوفين من أعضاء الجمعية ، وكانت  
 الجمعية تلزم كل من اشترك في حملة من الحملات الكبرى  
 الناجحة أن يتنازل عن مبلغ من المال لشراء زيت لإشعال  
 المصابيح في ضريح أحد القديسين ، وكان ما يجمع من أمثال  
 هذه المبالغ يترك ليتصرف فيه الرئيس حسب ما يوحيه إليه  
 ضميره .

وكان للجمعية فروع في برشلونة وقرطبة وطليطلة وغيرها  
 من عواصم إسبانيا الزاهرة ، وكان مقر الجمعية في إحدى هذه  
 العواصم يضارع قصور ملوك ذلك العصر في الروعة والفخامة .  
 وقد عنت الجمعية بكتابة حوليات تسجل فيها أعمالها  
 واتفاقاتها الهامة ، وكانت هذه الحوليات وثيقة تاريخية ومرجعاً  
 للاطلاع على أعمالها ، وقد انتفعت بهذه الحوليات الحكومة  
 الإسبانية في سنة ١٨٢١ حينما استولت عليها ، وبدأت في محاكمة  
 رجالها ، وقد كان فرانسيس كورتينا الذي وجدت في داره هذه

الوثائق والكتب والمراجع آخر رؤساء هذه الجمعية التي لم تكذ  
تحتفل بمضى ثلثمائة سنة على وجودها وتوفيقيها في عالم الإجرام  
حتى أصابتها الضربة القاضية .

ونجحت الحكومة الإسبانية هذه المرة في الخلاص من الجمعية  
وتوج القضاء نجاحها ، ففي اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر  
سنة ١٨٢٢ سيق إلى المشنقة رئيس الجمعية الأكبر الأخير ،  
وستة عشر من الرؤساء البارزين ، وأعدموا في سوق إشبيلية .  
وقد قضى بذلك على هذه الجمعية الخطيرة وطويت  
صفحاتها الحافلة بالجرائم البشعة والمنكرات المستفظة .

## جمعية المافيا

نشأت هذه الجمعية في جزيرة صقلية الجحيلة الساحرة ،  
ولما كملت روية وعزيمة أصبحت من أعجب الجمعيات السرية  
التي عرفها التاريخ .

وهذه الجمعية بقوانينها ومجالس قضائها وشرطتها  
وجواسيسها وجامعي الضرائب لها وأساليبها في معاقبة من يتصدى  
لمنافستها وخوف الأهالي منها لم تصبح مجرد دولة في داخل  
الدولة ، وإنما أصبحت دولة فوق الدولة .

ومع ذلك كان ينقص هذه الجمعية بعض مقومات الجمعية  
السرية ، فلم يكن لها في غير المناطق المحلية الخالصة والظروف  
الاستثنائية رؤساء مختارون ، ولم يكن لها علامات سرية أو  
شارات يتعارف بها أعضاؤها ، ولا حفلات تقام لاستقبال  
الأعضاء الجدد ولا قواعد متبعة لقبول الأعضاء وإلحاقهم  
بالجمعية ، ومتى صحت عزيمة العضو على دخول الجمعية وكان  
له نصيب من الشجاعة والإقدام وحمل الأسلحة اللازمة فإنه  
يصبح عضواً عاملاً فيها بغير شرط ولا قيد ، وإذا فقد هذه

الصفات والمؤهلات طرد من الجمعية أو قتل ، وكان الرؤساء في هذه الجمعية يشقون طريقهم بالعنف والقوة ويفرضون أنفسهم فرضاً ، وفي توزيع الغنائم والإسلاب كان الجريء المقدامة يفوز بالنصيب الأوفر .

وقد تكونت الجمعية في بادئ أمرها من الحراس المسلحين الذين كان يتخذهم ملاك الأرض لحماية أنفسهم ، وبسط نفوذهم ، والمحافظة على أملاكهم ، وفي مطلع القرن التاسع عشر تبدد شمل جيش الإقطاعيين المكون من هؤلاء الحراس المسلحين ، ولكن هؤلاء الحراس عاشوا بعد ذلك ومنهم نشأت هذه الجمعية ، ولما التجأ بلاط نابولي إلى صقلية فراراً من جيش نابليون ، امتلأت الجزيرة بهذه المناسر والعصابات ، واتخذ الملك من بعض رجال هذه العصابات حرساً يدفع لهم من ماله الخاص ، ويعتمد عليهم في المحافظة على الأمن في الجزيرة ، وقد تغلب رجال حرس الملك على غيرهم من لصوص الجزيرة ومجرميها ، واحتكروا وحدهم اللصوصية والإجرام ، وقويت بشوكتهم وصار الناس ينظرون إليهم بعين الإعجاب والخوف ، وأصبح أعيان الجزيرة يدفعون لهم ضريبة الحماية وحفظ الأمن ، وظلت الجمعية نافذة الكلمة مرهوبة الجانب حتى شهر مايو سنة ١٩٢٤ ، ففي أحد أيام ذلك الشهر ورد الجزيرة السنيور موسولينى وألقى في مدينة بالرمو

خطبة من خطبه الحماسية الملتبهة وهدد فيها الجمعية بالحديد والنار .

وكان كل صقلي على وجه التقريب عضواً في الجمعية إما باشتراكه فيما تجمعه من السرقة والتهرب والقتل وحملات الشتائم وتشويه السمعة ، وإما بدفع ضريبة الحماية للجمعية ، ومما ساعد على نجاحها أن سكان صقلية استهدفوا طويلاً للظلم والطغيان ، ولذلك نشأت عندهم تقاليد حماية الثائرين المتمردين وإخفاء حركاتهم وكتمان أخبارهم ، وصار تحدى الحكومة وعدم التعويل عليها في صيانة العدالة والمحافظة على القوانين والاعتماد على أنفسهم في ذلك من الصفات الملازمة لهم ، وكان الذي يخالف هذه التقاليد يصبح مضغة في الأفواه ويفقد سمعته وجاهه ومكانته في المجتمع الصقلي ، ويقاطعه الناس ويتجنبونه ، ويحل به العقاب والاضطهاد ، ويدوق ألوان العذاب ، وكان ضحايا جمعية المافيا يلتزمون الصمت والصبر على الهوان بغير تدمير ولا شكوى ، وذلك نزولاً على حكم التقاليد من ناحية ، ومن ناحية أخرى يأساً من العدالة وقدرة الحكومة على الانتصاف لهم ، وكانوا يمتنعون عن تقديم الأدلة والقرائن أو يقدمون أدلة زائفة وقرائن مضللة ، خشية بأس الجمعية واحتراماً للتقاليد ، وإبقاء على السمعة الحسنة والشرف الرفيع !



وكانت مؤامرة الصمت هذه توغر صدر الحكومة وتشل  
يدها وتقعدها عن أداء واجبها ، وكان الأمر على ما فيه من هم  
ونكد للحكومة لا يخلو في بعض الأحيان من الفكاهة المسلية ،  
فقد اتفق مرة أن سرق بغل أحد المزارعين الصقليين ، وعرضت  
الشرطة على الرجل عدداً من البغال المسروقة ليدل على بغله من  
بينها ، ولكن خوف الرجل من انتقام الجمعية جعله يحلف أن  
بغله ليس من البغال المعروضة ، وذلك بالرغم من أن البغل أظهر  
السرور حينما سمع صوت صاحبه ، ولما أطلق الشرطة البغل في  
الليل بظاهر القرية اتجه البغل إلى منزل المزارع ، وفرحت زوجة  
الرجل وأولاده بعودة البغل إلى دارهم ! ولكن المزارع رغم ذلك  
أصر على إنكاره ، زاعماً أن البغل ليس بغله ! والظاهر أن  
التجارب المرة التي مرت بهذا المزارع المسكين جعلته يصر على  
إنكاره هذا الإصرار الذي يثير الضحك ، وعين الذئب الطائرة  
تعلم الناس الكثير من ضروب الحكمة ! فقد كان هذا المزارع  
يعلم قصة مزارع آخر كان عائداً إلى قريته وهو يسوق أمامه  
قطيعاً من الغنم ، فلقية أربعة رجال من أعضاء جمعية المافيا  
فاختطفوا شاة وأشبعوا صوفها بزيت البرافين وأشعلوا فيه النار ،  
وبعد أن ارغموا الراعي المرعوب المرتعد الفرائص على مشاهدة  
مصرع شاته ومصيرها القاسي مثلوا به تمثيلهم بالشاة ، وكان

الذين ينالهم أذى الجمعية وتحل بهم نقيمتها فتنهب أموالهم وتسرق أمتعتهم يجدون اللجوء إلى الجمعية وكسب رضاها بالمال أهون عليهم وأضمن لهم من اللجوء إلى الحكومة ، وقد آثرت فتاة كانت خادمة في منزل أحد أعضاء الجمعية الانتحار على أن تفشي سر سيدها ، وتذكر ما تعلمه عن حركاته المريبة وتعرض نفسها للانتقام الجمعية .

وقد حاول غاريبالدى بطل الاستقلال الإيطالى المعروف أن يقضى على هذه الجمعية ولكنه أخفق فى ذلك ، ولم يكن نفوذ هذه الجمعية مقصوراً على القرى والريف ، وإنما كان يشمل كذلك المدن ، فكان العضو فى الجمعية يستطيع أن يجرد خنجره الصغير ويطعن به فريسته فى إحدى الحداثق العامة ويختفى دون أن يتعرض له أحد من الذين يتبعثرون فى الحديقة ، أو يقتنى أثره أو يستنجد بالشرطة ، ويدلهم عليه ، وحتى لو رآه الشرطى بعينه وهو يباشر الاعتداء على فريسته فإن الحاضرين يمتنعون عن أداء الشهادة ، أو ينكرون ما رآته عيونهم ، وربما تطوع بعضهم ليشهد بأن البخانى كان فى مكان بعيد عن مكان الحادثة أو أنه كان صديقاً للقتيل ، وكان أغلب الذين يدانون وتثبت عليهم الجريمة ويقدمون للموت ليسوا هم القتلة الأصليين ، وإنما هم أفراد أرادت الجمعية أن تزيلهم من طريقها ، وفى

بعض الحالات الهامة كانت جمعية المافيا تهيب وسيلة الهرب للمجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ، لكى تتولى هى بنفسها إعدامهم .

على أن الجمعية فى معظم الحالات كانت تبالغ فى الاحتياط حينما تحكم بالإعدام على أى إنسان ، وكانت تختار لتنفيذ الحكم رجلاً لا تعلق به الشبهة ، ولا تضع فى يده السلاح إلا فى اللحظة الأخيرة ، فإذا طعن الطعنة المصممة أو أطلق الرصاصة القاتلة امتدت الأيدى الخفية إلى السلاح الذى يحمله وعملت على إخفائه ، وباختفاء السلاح وتزوير الشهود يهون الأمر ، ويزول الخطر ، ويحظى القاتل بالبراءة .

وقد أصبحت الجمعية فى الجزيرة على ممر الأيام تشبه من بعض الوجوه شركات التأمين ، يقدم لها الناس قدراً من المال منجّماً فى مقابل حمايتهم من الجرائم على اختلاف أنواعها ، وكان الأغنياء والفقراء على السواء يؤدون هذه الضريبة ، وكان الذى يؤدى الضريبة يظفر بالأمن الذى لا تستطيع الحكومة أن تفيته ظله ، وإذا وقع عليه أى اعتداء لم تقره الجمعية فإنها تبادر فى الحال إلى الانتقام له وإعادة الطمأنينة إليه ، وإذا تأخر أحد الناس عن تقديم القسط المطلوب منه فى الميعاد المعهود فإنهم يذكرونه به بطريقة مقبولة ، فإذا أصر على المماطلة تبدأ

الجمعية في معاقبته بإغراق حديقته أو بإتلاف كرومه أو بإحراق داره ، ويتبع ذلك في النهاية قتله الذي يتأخر قليلا ، ولكنه يكون أمراً محتوماً وقضاء لا مردَّ له ، وذلك كله يمكن تجنبه بدفع الأقساط في مواعييدها المعهودة بغير تردد ولا إبطاء ، وكان تحرى رجال جمعية المافيا الصديق في وعدهم وإيعادهم يجعل الناس يحتملونهم ويثقون بهم ويأمنون شرهم متى قدموا لهم الإتاوة المعلومة .

وبعد الحرب الكبرى الأولى ساءت أحوال الجمعية ، وتطرق إليها الضعف ، وشاع فيها الفساد ، وأصبحت أعمالها مطبوعة بطابع الطمع والجشع والخيانة والغدر ، ومل الناس وجودها ، وضاقوا بها ذرعاً ، ولكنهم كانوا برغم ذلك لا يزالون ينحشون بأسها ، ولا يجدون من القانون الحماية الكافية ، ويعتقدون أن من الغبث الاحتماء بالشرطة ، واحتملوا الخطب صامتين ، ولم يجدوا نفعاً في الالتجاء إلى رؤساء الجمعية كما كانوا يفعلون من قبل ، ولكن ساعة انفراج الأزمة وزوال الكرب كانت قد حانت ، فالاختلال الذي طرأ على أحوال الجمعية أتاح الفرصة لموسوليني للقضاء عليها ، فبعد أن تسلم مقاليد الحكم في إيطاليا وفرض عليها نظامه الديكتاتورى وإطمأن إلى مكانته نزل في مايو سنة ١٩٢٤ بصقيلة ووعد سكان بصقيلة باستتاب الأمن واستقرار

النظام، قائلاً : « إن الخمسة الملايين الوطنيين الصقليين الذين تلزمهم بدفع الضرائب مئات قلائل من المجرمين وتسلب أموالهم وتعبث بشرفهم وتنتهك حرمتهم لن يعرفوا بعد الآن الاضطهاد والعسف » .

واستدعى موسولينى شيزارى مورى حاكم بالرمو ، وكان قد اشتهر بقدرته على تناول مشكلة جمعية المافيا ، فعقد مورى العزم على مهاجمة الجمعية فى أمنع معاقلها ليقتنع أهل الجزيرة بأن الحكومة أقوى ساعداً وأعظم صولة من الجمعية التى طال استبدادها بالأمر فى الجزيرة ، ونجاح الحكومة فى هذه المحاولة يجعل سكان الجزيرة ينضمون إلى جانبها ويناصرونها فى مهمتها ويساعدونها على توطيد الأمن فى الجزيرة، وفضلاً عن ذلك فإنه يكشف عن جرائم أعضاء الجمعية المستورة ، ويمكن الحكومة من إخضاعهم للقانون وإنزال العقوبة اللازمة بهم ، وقد كان مصدر قوة الجمعية شيثان وهما خوف أهالى الجزيرة وتهاون الحكومة وإهمالها ، ومتى نشطت الحكومة وأطرحت التهاون والإهمال زال الخوف ، وانحلت عقدة الألسنة ، وأمكن وضع حد لجرائم الجمعية .

وكان معقل الجمعية الحصين يقع فى سلسلة الجبال الحميلة المتأبدة الممتدة بين مسينا وبالرمو ، وكانت الجمعية مسيطرة

سيطرة تامة على القرى الواقعة فى سفوح هذه الجبال ، وكانت الرحلة إليها شاقة تعترض السائر خلالها الأجراف الشاهقة والهاويات العميقة ، ويعايب الماء ، ولا تأمن فيها اعتداء كمين أو هجومًا مفاجئًا من الخلف . وكانت فى وسط هذه المنطقة الوعرة قرية « جانجى » الواقعة فوق جبل بعيد منعزل ، وكانت البيوت الواقعة على جانب الجبل تشرف على جزيرة صقلية برمتها ، ومعظمها يمكن الدخول إليه من طريق أعلى ومن طريق آخر أسفل ، ولها بابان باب من ناحية سقفها وباب آخر من الطبقة السفلى من البيت ، والكثير من هذه البيوت كان يربط بعضها ببعض ممرات تحتية محفورة فى الجبل ، وبها مخابئ وأبواب سرية مخبئة خلف المرايا وتحت الحصر .

وبدأت الحملة الحاسمة بمناوشات بعيدة عن قرية « جانجى » وكانت طوالها لا تختلف عن الحملات السالفة التى كانت تترك رجال الجمعية غير مكترئين ؛ ولكن الحركة أخذت تشدد وتقوى فى مدى أيام قلائل ، ودنت الحملة من « جانجى » ، وقبل أن يفطن رجال الجمعية لقوة الحملة ويستشعروا عنفها ، كانوا قد أحيط بهم من كل ناحية ، وأخذت عليهم المسالك والمنافذ ، وأخذ الشرطة يحتلون المنازل والدساكر ، ولم يبق أمام رجال الجمعية سوى الاعتصام بقرية جانجى نفسها ، ولما علم



مورى بذلك من عيونه وطلائعه أرسل قوات أخرى لمحاصرة جانجى ،  
وطوقت القرية تطويقاً تاماً ، وقطعت أسلاك التليفون والتلغراف  
بها ، وأرسل مورى منادياً من قبله يعلن أن على المختبئين أن  
يخرجوا من مكانهم ويسلموا أنفسهم فى خلال اثنتى عشرة ساعة ،  
وبعد انقضاء هذه الفترة ستتخذ إجراءات شديدة حاسمة ،  
وعمل مورى على أن يظل المختبئون منعزلين منفردين ليفيد من  
تخويفهم وإرهابهم ، وكان يقصد ألا يهزمهم فى ميدان الحرب  
لأن هزيمتهم فى ساحة الجهاد تحفظ لهم مكانتهم ، وهو يحرص  
على أن يكشف للناس ضعفهم ، ويظهرهم فى مظهر الجبناء  
المستسلمين ، ويجعلهم أضحوكة للعالم ، وأخذ رجال الشرطة  
يدخلون البيوت بيتاً بيتاً ويأويذبون الماشية المسروقة ، ويبيعون لحمها  
للناس بأسعار مضحكة ، وكان الخوف ما يزال يمنع الناس من  
التقدم لشراؤها ، ولكن هذه الأنباء بلغت المختبئين ، وكان لها  
فى نفوسهم وقع شديد ، وأخذ الكثير من الأشياء المسروقة  
المحفوظة فى منازلهم ، وبيعت بأثمان زهيدة ، وأخذ أهل الجزيرة  
يسخرون من هؤلاء الأبطال المعروفين بقوة العزم وشدة البأس  
الذين تنهب بيوتهم ويباع ما بها بأبخس الأثمان وهم مع ذلك  
لأنذون بالخبايا شأن الجبناء المستضعفين ، وأخذ هؤلاء الرجال  
الذين ملأوا نفوس الناس خوفاً ورعباً وأراقوا دماءهم وأجروا

دموعهم في الاستسلام وإلقاء السلاح ، والكف عن المقاومة ، ولم يحتفظ بإبائه وشممه سوى الزعيم القديم الأبيض الذواذب « جيتانو فاريلتو » ، فقد أرسل لمورى رسالة يعده فيها بشرفه بأنه سيسلم نفسه في قاعة استقبال عمدة القرية ، وسار في خطوات رزينة رافع الرأس مشيع الفؤاد إلى دار العمدة ، وأسلم هناك عصا كبيرة كما يسلم قائد الجيش عصاه بعد هزيمة جيشه ، وقد شق نفسه بعد ذلك في السجن ليكون موته بيده لا بيد عمرو كما صنعت الزبائن قديماً .

وفر رجل آخر من رجال الجمعية محاولاً الاعتصام بالجبال ، فحدث ما دل على أن الحملة قد وفقت في تحقيق غرضها ، فقد سار في أثره جماعة من الأهالي حاملين السلاح وتبعوه في مخارم الجبال وغيرائها ، واضطروه إلى التسليم ، وأحضره مستخزياً متضائلاً بعد أن كان يتوعد بالانتقام ويشمخ بأنفه ويصعر خده ، واستسلم سائر أعضاء الجمعية بين ضحكات المزارعين الساخرة وسرورهم وفرحهم ، وانطلقت الألسنة المحبوسة وشدت أطرافها العيون التي كانت كليلة مغضية ، وامتألت سيارات الحكومة بمجرى الجزيرة وشذاذها ، وجمعت الأدلة التي تدينهم ، ولقي كل مجرم العقاب الرادع ، وأقسم الأعيان والمزارعون يمين الولاء للملك والقانون وطاعة الدولة ، ونادى قوم في كل مكان بالجزيرة

بسقوط جمعية المافيا ، وتطهرت أودية جبال الجزيرة وأدغالها من  
هذا الوباء القاتل ، وقضى على قوة المافيا بعد هذه السيرة غير  
العطرة ، وبهذا الأسلوب الحاسم الذى يمتاز به الحكم الديكتاتورى  
ولعله مزيته المفردة وفضله الأوحد .

## جمعية الكامورا

كانت جمعية الكامورا جمعية إجرامية خالصة ، وهي جمعية عجيبة النشأة ، وقد كان الباعث على وجودها ما كان يعانيه نزلاء سجن « ناپولي » من سوء معاملة الحراس وقسوتهم واضطهادهم فقد ألف هذا الاضطهاد بين قلوب المجرمين ووجد صفوفهم وأغراهم بإنشاء هذه الجمعية ليدفعوا عن أنفسهم أذى السجنانيين ويكيلوا لهم الصاع صاعين ، وكان أعضاء الجمعية بطبيعة الحال من اللصوص والسلايين والفتاك والصعاليك وسائر المجرمين على اختلاف أنواعهم وتفاوت درجاتهم في الإجرام ، وكانت الجمعية تتقاضى ضريبة من الفقراء لتحمل على الأغنياء وتشوه سمعتهم وتحط من قدرهم وترغم أنوفهم ، وكانت الجمعية مستعدة للقيام بأية جريمة جلت أو دقت . ولكل جريمة — من سرقة الأموال إلى اختطاف الأطفال — سعرها المحدد في القائمة .

وقد بدأت هذه الجمعية أعمالها سنة ١٨٢٠ في داخل سجن مدينة ناپولي ، وكان يحكمها فرع من أسرة البوربون عرف بسوء الحكم والطغيان والاستبداد والرجعية ، وقد ظلت الجمعية محصورة

فى نطاق السجون مدة عشر سنوات ، وعز على نزلاء السجون أن ينفرط عقد الجمعية بعد مغادرتهم السجن ، فحافظوا على بقائها ، وأرسوا قواعدا ، ووطدوا مكائنها ، وقوى نفوذها حتى شمل مملكة نابولي بخدافيرها ، وأصبحت الجمعية وسيلة انتقام فى يد كبار المجرمين ، وفريق من السياسيين غير المترددين ، ولم تجد الجمعية من يحسم داءها ويقمع إيداءها ، فلأ الخوف منها نفوس الناس ، وكان القتل عقوبة من يستهدف لغضبها ويستدعى نقيمتها .

وكان المجرمون حينما يدخلون السجن يقترب منهم أحد أعضاء الجمعية ويطالبهم بدفع نقود لمصباح العذراء ، وكان العقلاء من المساجين يدفعون ضريبة لعضو الجمعية عن الأكل والشرب والتدخين ، ويعطونه جزءاً من النقود التى يرسلها إليهم أصدقاؤهم أو أقاربهم ، وكان السجنين يضمن بذلك الحماية من اعتداء السجنائين والمساجين وإذا أمسك عن أداء هذه الضريبة تعرض للضرب حتى الموت من نزلاء السجن ، واستهدف لسوء معاملة حراس السجن التى كانت فى أغلب الأوقات تتجاوز حدود الاحتمال ، وكان بين نزلاء السجن من يؤثر الانضمام إلى عضوية الجمعية ، وكان عليه فى هذه الحالة أن يثبت أنه أهل للمحافظة على الأسرار وأنه لا يخشى السكين ، وتقام لذلك حفلة

فى إحدى ردهات السجن ، ويغض الحراس عنها الطرف ،  
ويجتمع فيها جماعة من القتلة شاهرى السكاكين ، وتوضع قطعة  
من النقود على الأرض ، وعلى طالب الدخول فى الجمعية أن  
يتناول هذه القطعة من الأرض وقد أخذت طعنات السكاكين  
الحادة تتوالى على الأرض دراكاً حولها ، وفى بعض الأحيان  
كانت تصيب الطعنات يد العضو بالحديد وهو يتناول قطعة العملة ،  
وفى أحيان أخرى كان يرفع العضو قطعة العملة من الأرض  
دون أن يصاب بسوء ، وهو فى الحالين يعد ناجحاً فى التجربة  
الأولى .

وفى خارج السجن يجوز الأعضاء اختبارات أخرى شديدة  
قاسية ، وإذا وفق المرء فيها أصبح عضواً له خطر فى الجمعية .  
وكان عضو الجمعية يعتمد على ثلاثة أشياء : جرأة القلب وقوة  
الساعد والبراعة فى استعمال السكين الحاد ، وكان العضو الذى  
يثبت كفايته تقام له حفلة يعترف له فيها بأنه عضو عامل فى  
الجمعية وفى هذه الحفلة يجتمع الأعضاء صامتين حول منضدة ،  
ويضع رئيس الجماعة على المائدة خنجرًا ومسدساً وكأساً بها  
نبيذ مسموم ، حينما يدخل العضو الحديد ترمقه عيون  
الحاضرين ويكشف عن ذراعه ويتناول الرئيس مبضعاً ويدخله  
فى أحد عروقه الذراع العارية ويرفع العضو يده اليمنى المملوطة

بالدم ، ويقسم يمينا وثيقا بالمحافظة على قوانين الجمعية ،  
وصيانة أسرارها ، ثم يرفع كأس النبيذ المسموم إلى شفثيه ،  
ويصوب المسدس إلى رأسه ويسدد الخنجر إلى صدره ، وفي كل  
مرة يوقفه الرئيس بإشارة منه ، ومعنى ذلك أنه قد أثبت رغبته في  
وضع حياته تحت تصرف رئيسه ، ثم ينحني أخيراً ويجثو على  
ركبتيه ، ويتناول الرئيس الكأس ويحطمها على الأرض ،  
ويطلق المسدس في الهواء ، ويأخذ الخنجر من العضو الراكع  
ويدخله في غمده ، وذلك كله دليل على الثقة بالعضو الجديد .  
وكان السكين السلاح المفضل عند أعضاء جمعية  
الكامورّا ، وكان الأعضاء كثيراً ما يتدربون على مبارزة بعضهم  
البعض مبارزة ودية ، وكانت المبارزة تنتهى حينما يسيل الدم من  
ذراع أحد المتبارزين ، وكان المتبارزان يتعانقان في أعقاب  
ذلك ، وعلى الأعضاء أن يحفظوا عن ظهر قلب مصطلحات  
الجمعية ، وكانت المفردات التي يجب على العضو معرفتها لا تقل  
عن خمسة آلاف كلمة ، وكانت الفريسة مثلاً يطلق عليها اسم  
« الحمل » ، والبندقية كانت تسمى « الفم » ، وكان بالجمعية  
قسم خاص للتدريب على النشل وإتقانه ، وكانت تستعمل في  
هذا القسم الخاص آلة لمط الأصابع حتى تصبح متساوية في  
الطول .



وفى بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ اصطبغت الكامورا بالصبغة السياسية ، فقد حاول المتآمرون ضد الحكومة استمالة جمعية الكامورا إلى صفوفهم ، وقد ساعدتهم الجمعية بعض المساعدة ، ونجح السياسيون فى إرغام الملك فرنسيس الثانى على إعلان الدستور فى يونيو سنة ١٨٦٠ وفتحت السجون حينذاك ، وخرج منها جماعة من جمعية الكامورا واضطر رئيس الشرطة إلى الاستعانة برجال الكامورا لإنقاذ نابولى من الغوغاء الذين أخذوا فى التظاهر من أجل الملك . وقد نجح رجال الكامورا فى المحافظة على الأمن والنظام بعد أن أخفق فى صيانتهم رجال الشرطة ، وتكون من رجال الجمعية حرس مدنى حتى دخل غاريبالدى المدينة ، ولكن رجال الكامورا لم يستطيعوا التخلّى عن منازعهم السيئة ، واعتيادهم السلب والسرقة والاغتصاب فاشتغلوا بتهريب السلع لإعفاؤها من الرسوم الجمركية وسيطروا على الانتخابات العامة والاختيار لوظائف الدولة وأخذوا يستغلون كل مناسبة للكسب الحرام ، فاضطرت الحكومة إلى القيام بحملة لمقاومة الجمعية ووضع حد لهذه الأعمال ، واعتقلت فى يوم واحد ثلثمائة من أعضائها ، ونفت أكثرهم إلى جزائر البحر الأبيض ، ولكنهم سرعان ما عادوا من المنفى يهتفون بسقوط رئيس الشرطة الذى أظهر حزماً وعزماً فى مقاومة الجمعية .

وظلت الحرب ناشبة بين الحكومة والجمعية . وكان الخوف الشديد الذى استولى على النفوس من أفراد هذه الجمعية يجعل مهمة الحكومة فى مقاومتها شاقة ، واستشرى شرها ، وأرهقت الناس إرهاقاً شديداً ، حتى اجتمعت كلمتهم على ضرورة التخلص من قبضتها ، وجاء السنيور موسولينى بديكتاتوريته الصارمة فأتم القضاء على الجمعية وأراح الناس من شرها وجرائمها .

## الجمعيات السرية الألمانية

الجمعيات السرية فى أى مصر من الأمصار تمثل طبائع سكانه ، وتتسم بميسمه القومى ، وتوضح لنا جوانب من تاريخهم هامة ، والأوقات التى تصلح فيها أداة الحكم وتستقر الأمور وتسير العدالة فى مجراها يقل فيها ظهور الجمعيات السرية لانتفاء أكثر البواعث التى تدعو إلى تأليفها ، أما أزمنة الانتقال وعهود الفتن والثورات والقلل والاضطرابات وفساد الحكم وطغيان الدولة أو ضعفها وتخاذلها ، فإنها تمتاز على الدوام بكثرة وجود الجمعيات السرية .

وتاريخ ألمانيا يوضح لنا هذه الحقيقة ويكشف عنها ، وفى كل أزمة من الأزمات التى انتابت الشعب الألمانى كانت تظهر الجمعيات السرية ، وفى الأزمنة العصيبة التى كانت تتعقد فيها الأزمات وتخرج الأمور ، ويشتد الكرب والضيق ، كانت تتكاثر الجمعيات السرية بصورة ملحوظة ، فإذا انفرجت الأزمة واستفاق الشعب من غمرتها ضعف شأن الجمعيات السرية وقل الإقبال عليها وفقدت تأثيرها .

ومن أقدم الجمعيات السرية الألمانية جمعية القم المقدسة ،  
وقد ولدت هذه الجمعية في غمار الاضطراب والفوضى ، ومن  
مزايها أنها عملت على تقليص أظافر الفوضى وإزالة الاضطراب  
وأعادت الأمور إلى نصابها ، وسوغت وجودها بكسب عطف  
العقلاء الراجحي التفكير .

ويرجع تاريخ هذه الجمعية إلى منتصف القرن الثالث عشر  
فقد ساءت فيه الأحوال ، وأصبح الأمر يتطلب العلاج العاجل  
الحاسم ، وبخاصة بعد وفاة الإمبراطور فردريك الثاني ،  
الذي لم تعش به أسرة الهوهنشتاوفن إلا سنوات قلائل ، طويت  
بعدها صفحاتها ، واستغل سادة الإقطاع ضعف الإمبراطورية  
واستبدوا بالأمر ، واستأثروا بالسلطة ، وطغوا وبغوا وعسفوا الناس  
وعنفوا بهم ، ولم تعقد المحاكم الإمبراطورية جلساتها للنظر في  
المظالم ، وفرض سلطان القانون وساد الشعور بأن كل من يستطيع  
الإقدام على شيء لا يجد ما يمنعه ، ولذا وجد ذوو الأخطار من  
سكان المدن في مقاطعة وستفاليا أن يكونوا جمعية القم المقدسة ،  
وكان الغرض الذي ترمى إليه الجمعية هو مفاجأة المجرمين  
والقبض عليهم ومعاقبتهم قبل أن يستشعروا الخطر ، ويأخذوا  
الحيطة ، وإيجاد سلطة قوية مرهوبة الجانب يشعر بها ويخشى  
بأسها . وكانت الجمعية تعتصم بالسرية والاستتار والتخفي

لتستعين بالكتمان على تحقيق أهدافها وتنزل العقوبة السريعة بمن يستحقها ، وكان للأعضاء لغة سرية يتفاهمون بها ، ورموز وعلامات وشارات للتعارف ، ونص اليمين الذى كان يقسم به العضو له دلالة فهو يقول « أقسم بشرفى المقدس بأننى سأصون أسرار الجمعية المقدسة وأخبتها حتى عن الشمس والقمر ، ولا أبوح للرجال ولا للنساء ولا للزوجة ولا للأولاد ، ولا للقرية ولا للحقل ، ولا للحشيش ولا للحيوان ، وأضن بها على العظيم والصغير ، فلا الألم ولا المال ولا الأباء ولا أى شىء خلقه الله يجعلنى أحنث فى يمينى » .

وكانت الجمعية تعقد اجتماعاتها فى سراديب تحت الأرض ، وفى الغيران الواهية الضوء ، وتحت أشجار الغابات ، وكانت تختار دائماً ما بعد الفجر لعقد هذه الاجتماعات .

وكان . يتقدم أحد كبار الأعضاء بالاتهام أمام المحكمة المعقودة ، فإذا كان المتهم عضواً فى الجمعية له مكانته ، تلقى أمراً بضرورة المثول بين يدى المحكمة فى الجلسة السرية التالية ، وإذا تأخر عن الحضور حولت القضية إلى القضاء السرى ، وإذا لم يظهر العضو أمام مجلس هذا القضاء حكم عليه فى الحال وعد خائناً .

وكانت تكتب الدعوات على الرق ، ويوضع عليها سبعة  
 أختام ، وفي كل حالة كانت ترسل ثلاث دعوات ، وكان  
 يسمح للدعوة الأولى بستة أسابيع وثلاثة أيام ، وللدعوة الثانية  
 بستة أسابيع ، وللدعوة الثالثة بستة أسابيع وثلاثة أيام ، فإذا  
 تجاهل المدعو هذه الدعوات الثلاث فإن على المتهم أن يقدم  
 سبعة شهود لا ليثبت الجريمة على المتهم وإنما ليثبت صدقه  
 وأمانته ، ومتى أيدت التهمة بهذه الطريقة حكم على المتهم حكماً  
 غيابياً ، ومتى صدر الحكم نفذ في أسرع وقت مستطاع ،  
 وأعلن أن الرجل طريد العدالة ، وأمر ثلاثة من أعضاء الجمعية  
 المتقدمين بشنقه على أقرب شجرة إذا صادفوه في الطريق ،  
 وإذا ظهر المتهم رداً على الدعوات التي وجهت إليه فإن له الحق  
 في استدعاء ثلاثين شاهداً ، وله الحق كذلك في رفع الأمر إلى  
 محكمة القضاء الإمبراطوري التي تعقد سراً في دورتموند ، ولكن  
 إذا خسر القضية فإنه يشنق فوراً :

وكان الذي يحكم عليهم غيابياً في العادة لا يعرفون الحكم  
 الذي صدر ضدهم ، وكان أي عضو من أعضاء الجمعية يفضي  
 لهم بالسر يستهدف لخطر القتل ، بل كان مجرد الإشارة إلى  
 الحكم أو الكناية عنه والتلويح به ممنوعاً منعاً باتاً ، وكان يعطى  
 للمتهم وثيقة مختومة تخول له حق المساعدة من أي عضو من

أعضاء الجمعية أينما يجد المتهم وفي أى وقت يراه ، وإذا كان المتهم من كبار المجرمين والأشقياء عهدت الجمعية إلى جماعة من رجالها في معاقبته . ولكل فرد من أفراد هذه الجماعة حق طلب المساعدة من أى عضو من أعضاء الجمعية ، يرى ضرورة الاستعانة به ، وإذا قاوم المتهم فإنه يقتل طعناً بالخناجر ، ويترك في جثته خنجر ، دلالة على أن جمعيته هى التى تولت قتله ، وإذا شق يترك سكين معلق بالشجرة .

وأصبح الناس في ألمانيا يخشون جماعة القم أكثر مما يخشون الإمبراطور ، وكان حكم تلك المحاكم الحرة يبعث الرعب في قلوب المجرمين ، وقد استطاعت الجمعية بهذا الأسلوب إقامة حكم القانون ، وأخذت تقل الحاجة إلى وجودها حينما عاد للقانون احترامه وسلطانه ، ومع ذلك فإن الجمعية عقدت آخر جلساتها في سنة ١٨١١ ولا يزال حفدة هؤلاء القضاة الأحرار يتلاقون كل عام في أمكنة خاصة بألمانيا لإحياء ذكرى نفوذ أسلافهم الماضى ، وعظمتهم الدائرة .

ومن أشهر الجمعيات السرية التى ظهرت في ألمانيا جمعية المستنيرين أو « الأليمناتى » وقد نشأت في القرن الثامن عشر ، وكان من أعضائها شاعر ألمانيا الكبير وحكيمها العظيم « جيتى » وكان مؤسس هذه الجمعية شاب في الثامنة والعشرين من عمره ،



يسمى « آدم وإيسهاوبت » ، وكانت الجمعية فى أول نشأتها جمعية سرية للحكمة والتقدم ، ولكن سرعان ما تحولت إلى الناحية السياسية ، وكان هدفها أن تحل الرغبة فى عمل الخير لبنى الإنسان جميعاً محل الأديان ، والعمل على تقويض النظام الملكى . ولكن الملك كارل تيودور ملك بافاريا الذى اتهمته الجمعية بالطغيان والاستبداد أصر على وجوده ، وأبى أن يتقلص ظل الملكية فى عهده ، ففضى على الجمعية فى سنة ١٧٨٣ وفرق شمل أعضائها .

وكانت قد تألفت جمعية سرية أخرى فى ألمانيا حينما نشأت جمعية المستنيرين وقد قامت هذه الجمعية بإعلان حرب من نوع آخر ، وهذه هى جمعية روزيكروشيان وكانت رجعية النزعة ، تحارب التقدم والاستنارة ، واستعمل أعضاؤها نفوذهم عند الملك لإزالة الإصلاحات التى شرع فى الأخذ بها نزولاً على رأى جماعة المستنيرين ، وكانت الطريقة التى اتبعتها الجمعية لنجاح هذه الخطة لا تشرفها ولا تشرف الملك ، فقد عملت الجمعية على ضم الملك إلى صفوفها ، وتمت حفلة التحاقه بالجمعية فى سنة ١٧٨١ ، وفى وسط جماعة من الرجال المقنعين حلف الملك يمين الولاء للجمعية ، وفجأة ظهر على الحائط أمامه صور مشوهة تمثل أسلافه ، وخاطبته هذه الأشباح ونادته باسمه ،

فتغشاه الخوف والفرع ، ووعده بأن يجب مطالب الجمعية ،  
 ويعمل على تنفيذ أوامرها ، وكان رؤساء الجمعية بطبيعة الحال  
 يعرفون سر استدعاء هذه الأشباح في الأوقات التي يريدونها ،  
 وذلك باستعمال المرايا والفوانيس السحرية والتكلم من باطن  
 الجوف ، وبهذه الطريقة أصبح الملك ألوبة في يد الجمعية ،  
 وكان أول مطالبهم من الملك هو محاكمة جمعية الأيمنائى وعدم  
 الترفق بها وقد نجحوا في ذلك ، ولكن أعضاء جمعية الأيمنائى  
 فروا إلى إيطاليا وروسيا وغيرها من الدول الأوروبية ، وأذاع هذا  
 الاضطهاد أفكار جمعية الأيمنائى في كل ناحية من نواحي  
 أوروبا ، وحاول أعضاء جمعية الروزيكروشيان ممارسة السحر  
 وتجارب الكيمياء ، وأن يحولوا الأحجار إلى ذهب ، وبالرغم من  
 عيوب هذه الجمعية ونقائصها فإنها أثرت في الشعر والأدب  
 وأثارت الأخيلة وابتعثت بعض التفكيرات الفلسفية .

وظلت ألمانيا مستقراً للجمعيات السرية ، ففي سنة ١٧٦٢  
 نشأت جمعية « نادى موسل » وهي جمعية سياسية ، ومن هذه  
 الجمعية تكونت جمعية أخرى هي جمعية الصداقة وكان أعضاؤها  
 يحملون صليباً لاصقاً بشريط أصفر اللون ، ويحلفون يمين الولاء  
 لبروسيا والعمل على أن تصبح زعيمة ألمانيا وهم أمام منضدة ،  
 وقد وضع فوقها أربعة سيوف متقاطعة ، وظهرت جمعيات

سياسية سرية أخرى في ألمانيا على هذا الطراز ، كان أكثر أعضائها من الطلبة ، وعمت هذه الجمعيات أكثر نواحي ألمانيا ، وقد وجد في وقت واحد أكثر من ثلاثين جمعية سرية . وفي سنة ١٨٠٧ كانت بروسيا تحت سيطرة الفرنسيين ، فتكاثرت الجمعيات السرية ، وكانت جميعها ترمى إلى الخلاص من الحكم الفرنسي ، وقد أوجد البارون قون ستاين في سنة ١٨٠٩ « اتحاد الفضيلة » ولم يكن يسمح بالالتحاق بهذه الجمعية لغير ذوى السمعة الحسنة ، وقد انضم إليها كثير من النبلاء وأساتذة الجامعات ، وضباط الجيش والموظفين ، وأثارت الجمعية اشتباه نابليون فأمر بحلها في يسر وسهولة ، ونشأت جمعيات سرية أخرى لمقاومة نابليون منها جمعية « اتحاد هوفمان » ، وقد حلت في سنة ١٨١٥ ، ومنها جمعية « فرسان ملكة بروسيا » و « اتحاد الشبان » و « الجمعية الألمانية » و « الفرسان السود » . وفي سنة ١٨٣٢ ظهرت قوانين خاصة في ألمانيا لكبح جماح جمعيات الطلبة والحد من نشاطها ، فقتل عدد من الجنود وزج في السجن مدى الحياة بالكثير من أعضاء الجمعيات السرية الألمانية ، وهدأت حركة الجمعيات السرية في ألمانيا حقبة طويلة ، ثم وقعت الحرب العالمية الأولى ، وخرجت منها ألمانيا تجرر أذيال الهزيمة بعد أن تحدث أقوى دول العالم ، واستشعر الألمان الذل والهوان فعادوا إلى

الاستعانة بالجمعيات السرية ، فنشأت ما بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٦ أكثر من مائة جمعية سرية ألمانية ، وكانت هذه الجمعيات مختلفة النزعات متباينة الأغراض ، فبعضها كان يرمى إلى استعادة النظام الملكى ، وبعضها كان اشتراكى النزعة ، وبعضها الآخر كان يميل إلى الشيوعية ، وبعضها كانت له نزعات دينية قومية ، وكثرت مؤامراتها ودسائسها ، حتى ظهور هتلر وتعاظم نفوذه واستعلاء أمره ، وكانت الحكومة الجمهورية الألمانية عاجزة عن إخماد حركات هذه الجمعيات السرية المتكاثرة المتنازعة ، وكان الحلفاء يرفضون السماح للحكومة الألمانية باستيقاء التسليح حتى تستطيع القضاء على هذه الجمعيات السرية التى تهدد كيائها وتسلبها سلطانها ، وكان كل ما تستطيعه الحكومات الألمانية فى ظل الجمهورية هو إعلانها أن هذه الجمعيات السرية غير شرعية .

وفى إبريل سنة ١٩٢٣ ظهرت محاولة فى بافاريا لضم جميع المنظمات الحربية الألمانية فى اتحاد وطنى عام ، وكان جيش العاصفة الذى رأسه هتلر ممثلا أحسن تمثيل فى ذلك الاتحاد ، وقام هتلر بمحاولة لقلب نظام الحكم فى ميونخ أخفق فيها ، وأسفرت عن اعتقاله ، ولما أطلق سراحه عاد إلى تنفيذ برنامجه السياسى ، وما زال يدأب ويجهد حتى أصبح حزبه أقوى

الأحزاب الألمانية ، واستأثر بالسلطة وانفرد بالحكم ، واستطاع أن يقضى على الجمعيات السرية التي كانت تنافس جماعته ، ولكن هذا لم يمنع ظهور معارضين لخطته ونظامه ، وقد اضطر هؤلاء المعارضون إلى الاستتار والتخفى والعمل في الظلام ، خوفاً من التنكيل بهم والقضاء عليهم ، وأوجد هتلر نظام الجستابو ومعسكرات الاعتقال ، ليقاوم هذه الحركات السرية ، ويخمد أنفاسها ، وكانت جمعية الحرية الألمانية السرية تقوم بحركة مقاومة خفية ، وتذيع النشرات والبيانات السرية ، في المصانع والمتاجر والمنازل عن حقائق الأحوال . وقد بذل رجال الجستابو جهوداً عظيمة في اقتفاء آثار القائمين بهذه الحركة الخفية ، ولكن القائمين بها ظلوا مع ذلك يواجهون الخطر ويعملون في الظلام بغير كلال ولا ملل ، على إذاعة النشرات لنقض الدعوة النازية وتفنيد أقاويلها وكشف عيوبها ، وكانوا يفتنون في ذلك افتناناً يدل على سعة الحيلة وقوة العقيدة ، وبرغم القسوة التي عامل بها النازيون أعضاء هذه الجمعية فإنها لم تكف عن عملها طوال العهد الهتلري ، والظاهر أن هذه الجمعية كان لها أنصار مجهولون بين رجال الجستابو أنفسهم فقد حدث مرة أن أقيمت حفلة راقصة في « جراتز » وأطفئت الأنوار لرقصة الفالس ، فلما عادت الأنوار كما كانت في أول الحفلة ، كانت

أرض قاعة الرقص قد ملئت بمنشورات جماعة الحرية الألمانية ، ولم يستطع أحد أن يقتنى أثر موزع تلك المنشورات ، ونستخلص من ذلك أن الحركة النازية بدأت حركة سرية خفية ، ولما استولى النازيون على أزمة الحكم وقضوا على الأحزاب المنافسة لهم والجماعات المناوئة لحركتهم بلحأت المعارضة إلى الأساليب السرية والطرائق الخفية ، وقد دبرت مؤامرات لاغتيال هتلر قبل الحرب الكبرى الثانية وفي خلالها ، ولم تنجح هذه التدابير . وقد كان اندحار ألمانيا في الحرب العالمية الثانية محققاً للهدف الذى كانت ترمى إليه المعارضة الألمانية الخفية السرية بعد إخفاقها المتواصل فى زعزعة النظام النازى . وتاريخ ألمانيا يرينا فى صورة واضحة العلاقة القوية بين العدوان على الحرية وظهور الجمعيات السرية .

## الجمعيات السرية الإيرلندية

أخشى ما تخشاه الجمعيات السرية هو وجود الدسيس بين أعضائها لأنه يهتك أسرارها ويعرض حياتها للخطر ، ولكي تتوفى الجمعيات السرية هذا الشر تأخذ على أعضائها العهود الوثيقة وتحملهم على أن يقسموا الأقسام المغلظة ، وتدقق في اختيار الأعضاء ، وتجعل من حفلات التحاقهم بالجمعية وسيلة لسبر غورهم وكشف أحوالهم ووزن قيمتهم وتعرف شخصيتهم ، ولا تكتفى بذلك ، بل تلقنهم في باذئ الأمر مبادئها العامة وتخفي عنهم أغراضها البعيدة وغاياتها المرومة ، وتجعلهم طبقات ودرجات ولا ترتفع بالعضو من طبقة إلى طبقة أسمى إلا إذا حاز الثقة وظفر بالتقدير . وهي تحذر العضو عند التحاقه بها من خيانة أسرارها أشد تحذير ، وكلما انتقل العضو من درجة إلى درجة أسمى توألى هذا التحذير وتأکید العقوبة الشديدة التي تنتظر الخائن ، وتقيم العقوبات في سبيله ، والجمعيات السرية تحتفظ على الدوام للخونة من أعضائها بأشد العقوبات وأفظع ضروب التنكيل والتعذيب وحتى هؤلاء الأعضاء الذين يدركهم السأم أو يتسرب



إليهم الضعف ويرغبون في الخروج من الجمعية والتماس العيشة الهادئة الهانئة لا يجدون الطريق سهلاً ، وتستريب بهم الجمعية ، وقد يكون نصيبهم من سخط الجمعية ونقمتها أشد وأقسى من نصيب الأعضاء الذين يخرجون على الجمعية ويتحدونها .

وقد ابتليت الجمعيات السرية الإيرلندية بالخونة الذين كانوا يخرجون عليها ويحاربونها ويفشون أسرارها ، والإيرلنديون قوم أذكاء حصفاء لهم مكر ودهاء وفيهم شذوذ وغبابة أطوار ، يستخفهم السرور ويستهوهم الحزن ، وتتوالى على نفوسهم نوبات السباحة والكرم ، وسوء الظن والحذر ، وهم يقرضون الشعر ويحبون الجهاد والصراع ، وشخصيتهم في مجموعها معقدة ، ليس من السهل فهمها والوقوف على دوافعها ، ويعتقد بعض المفكرين الاجتماعيين أن لكل أمة خلقاً قومياً ثابتاً ، وربما كان في هذا الاعتقاد جانب من الإسراف ، فالظروف والأحوال والملايسات التي تعرض للأمم تبدل من أخلاقها وتؤثر في تصرفاتها وسلوكها . وربما كان من الإسراف كذلك أن ننكر وجود الخلق القومى إنكاراً باتاً ، فلكل أمة تقاليدها الخاصة ونزعاتها الأخلاقية الماثورة ، وموقفها تجاه الحياة ومشكلاتها ، ولكن الثبات على حالة واحدة والحمود والتعجز ليس من طبائع الأحياء . فللأمم سمات أخلاقية وألوان من الأمزجة لا تثبت الثبات كله ، ولا

تتغير كذلك التغيير كله ، وقد شاعت ظروف الأمة الإيرلندية في القرون المتأخرة أن تطبع الإيرلنديين بالطابع الذى أوضحت بعض سماته ، ولا يتسع المجال هنا لتحليل العوامل التى كونت لهم هذا المزاج ، لأنه بحث خارج عما أنا بصدده ، وإنما أردت بهذا الاستطراد أن أوضح أننى لست ممن يؤمنون بثبات الخلق القومى ، ولست كذلك ممن يذهبون إلى الاعتقاد بسرعة تغيره وتبدله .

والتناقض الواضح فى الخلق الإيرلندى يجعل شخصية الإيرلنديين شائقة تروق الباحث المتأمل فى أخلاق الأمم وأطوار الشعوب ، ولكنه فى الوقت نفسه يجعل تاريخ الجمعيات السرية الإيرلندية يثير الدهشة ويبعث على الأسى .

وكان أول باعث للإيرلنديين على الالتجاء للجمعيات السرية الفقر والبؤس وسوء الحال الذى كانت تعانيه إيرلندا ، والمزارعون فى جنوبى هذا القطر يلقون على الدوام من دهرهم عنتاً ، ولكن الكرب اشتد بهم حتى رق صبرهم عن احتماله . فى سنة ١٧٦١ اجتاحت إيرلندا طائفة من الفلاحين كانت قد اعصوبت وكونت جمعية سرية يربط بعض أعضائها ببعض رباط من العهود الموثقة ، وأخذت تعيث بالأمن وتنهب وتسرق وتقتل وتحرق وتهدم الحواجز والأسوار ، وتعرف هذه الجمعية

باسم جمعية « الفتية البيض » . وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يرتدون قميصاً أبيض فوق ملابسهم ليستتروا به ، وظلوا مثابرين على نشاطهم مدة خمس وعشرين سنة ، وكان أكثر هجومهم موجهاً للملاك الإنجليز الذين حلوا محل الملك الإيرلنديين ، وكان الدافع المباشر لقيام هذه الحركة هو الضائقة الزراعية التي نجمت عن تحويل المزارع الكبيرة إلى مراعي ، وقد زاد ذلك أحوال المزارعين سوءاً ، ولقّاهم من دهرهم همّاً ونصباً وضيقاً وحرَجاً ، لقد كانت أكواخ المزارعين الإيرلنديين بغير نوافذ ولا أبواب ، وكانوا يلجونها من ثقب مربع ، وكان هذا الثقب بمثابة الباب والنافذة والمدخنة ، وكان الظلام والدخان والخنازير والأطفال تملأ فراغ هذه الأكواخ القدرة البائسة ، وكان الناس يعيشون عيشة الضيق والحرمان والفقر المدقع . وكلما قل محصول البطاطة جاءت المجاعة في أثر ذلك ، وكانت الحياة بوجه عام حياة بدائية خشنة نكراء .

ونشأت في شمال إيرلندا كذلك جمعية سرية من الشباب على نمط جمعية « الفتية البيض » ، وكان السبب المباشر لإنشاء هذه الجمعية أن الماركيز دونجال أراد تكثير أمواله ، فطرد من مزارعه آلاف المستأجرين وأجر مزارعه لتجار « بلفاست » ، فكون المزارعون المطرودون جمعيتهم السرية وأسموها « القلوب

الفولاذية « وأعلنوا الحرب على الذين حلوا محلهم ، وكانت حرباً شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة ، وكأنهم أرادوا بذلك أن يجعلوا أنفسهم جديرين بالاسم الذى أطلق على جمعيتهم ، فكانوا يحرقون الزرع والضرع ، ويقتلون ويهبون ، وظلوا شغل الحكومة الشاغل سنوات ، حتى استطاعت أن تخضع شوكتهم وتفرق شملهم ، وقد فر ألوف منهم إلى أمريكا .

وتبع ذلك صراع مر بين الجمعيات الكاثوليكية والبروتستانتية فقد رأى البروتستانت أن الحكومة قد عجزت عن حمايتهم من اعتداء جماعة « القلوب الفولاذية » والجمعيات الكاثوليكية الأخرى فصمموا على مقاومة الإرهابيين بسلاحهم نفسه ، فتكونت في مقاطعة أرماج جمعية بروتستانتية أطلقت على نفسها اسم جمعية « فتية طلوع النهار » ، ولم يكن لهذه الجمعية حفلات ولا مراسم ، فقد كان غرضها محمداً معروفاً ، كانوا يجتمعون جماعات مسلحة عند تبليج الفجر ، ويسطون على بيوت الكاثوليك ويسلبونهم أسلحتهم ، وكانوا يكتبون على بيوت الكاثوليك عبارات طالبين منهم مغادرتها إلى كونوت أو إلى الجحيم ، في خلال عشرة أيام وينذرونهم بالعقوبة إذا لم يبادروا إلى ذلك ، وكانوا ينتقمون انتقاماً بالغاً من الذين يهملون أمر هذا الإنذار ، إلا إذا لجأ الكاثوليك إلى جماعة « المدافعين » — وهى جمعية كاثوليكية جديدة —

للدفع الأذى ورد الغارة ، وكانت نتيجة ذلك صدم الشر بالشر واستمرت هذه الحالة حتى أصبحت الحرب الداخلية عامة شاملة ، وأمد الإنجليز البروتستانت ، وتبع ذلك عهد من عهود القسوة الفظيعة والإثخان في سفك الدماء . وكان في الطرفين المتحاربين خونة مأجورون يوافون الفريق الآخر بالأخبار ويكشفون له الخطط ويوافونه بالخفايا والأسرار لقاء ما يدفع لهم من المال .

وكان الكاثوليك الإيرلنديون ، وقد أخرجوا من أكوأخهم ولاذوا بالكهوف والأراضي البور العارية الجرداء ، تستحثهم شجاعة اليأس على المضى في تدبير المؤامرات وموالاته الهجوم على أعدائهم ، وكانوا يباشرون التدريب على القتال في الأماكن المهجورة وبين الأجمات والمستنقعات ، ويخبئون الأسلحة في الغيران والأقبية السرية ، وكان يأتيهم المال والسلاح من الثائرين الفرنسيين ، وانضمت جماعة المدافعين إلى جمعية اتحاد الإيرلنديين وفي سنة ١٧٩٨ اشتعلت الثورة ، وذهب زعيم اتحاد الإيرلنديين .

اللورد إدوارد فتزجيرالد إلى فرنسا ، وعاد يحمل وعد فرنسا بالغزو المسلح لمساعدة الإيرلنديين ، وأبحر الجيش من فرنسا في الوقت المناسب ، ولكن الحملة لم تلق التوفيق ، فقد دفعت عاصفة السفن البالغ عددها ثلاثاً وأربعين سفينة تحمل خمسة عشر ألفاً من الجنود الفرنسيين ، وأرغمت الريح السفن على الاتجاه إلى خليج

بانترى ، ولم يكن للتأثرين سيطرة فى هذه الناحية تمكنهم من  
 تيسير نزول رجال الحملة ، فعادت الحملة أدراجها إلى برست  
 دون أن تفعل شيئاً ، ومات اللورد إدوارد متأثراً بجروحه قبل تنفيذ  
 حكم إعدامه شنقاً ، وكان قد خانته وغدر به المدعو فرانسيس  
 هيجنز صاحب جريدة « الرجل الحر » وتبع ذلك مذبحة عامة .  
 وأرجئت الثورات المنظمة حيناً من الزمن ، واستمرت حرب  
 العصابات فكان رجال العصابات يطلقون نيران بنادقهم من خلف  
 الحواجز والأسوار فتجيبهم طلقات نيران أخرى من داخل  
 الأسوار والحواجز ، ولم تجد القسوة ولا الوحشية فى إخماد الحركة  
 الإيرلندية الثورية ، وظهرت جمعية الشريط ، ودخل فيها  
 الإيرلنديون أفواجا ، وقوى نفوذها بسرعة لا تكاد تصدق ، وكان  
 كل خمسين عضواً يكونون محفلاً ، وكان من رؤساء هذه المحافل  
 رجل اسمه « باترك ديقين » أحد مدرسى القرى وكان من الأعضاء  
 الغلاة المتحمسين ، وقد تسبب فى وقوع مأساة أثارت شعور  
 الناس ، وحملتهم على محاربة هذه الجمعية وتقليم أظافرها .

فى ليلة من الليالى اشتعلت النيران فى المنزل الريفى المنعزل  
 الذى كان يسمى « مشوى الإوز الوحشى » ، وارتفع الدخان  
 وتعالى اللهب ، ورأى الناس من بعيد المارج المشتعل ، وسمعوا  
 معمعة النيران ، فأقبلوا من بعيد وانبعثت أصوات الاستغاثة من

سكان المنزل الريفي المحترق ، وقد أهدقت به النيران من كل ناحية ووقف على مقربة منه رجال نزعوا الرحمة من قلوبهم ، يحملون في أيديهم حرايا يطعنون بها كل من حاول النجاة من النار المتضجرة المندلعة .

وكان يقيم في هذا المنزل الريفي مزارع اسمه لينش ، وكان هذا الرجل وأسرته يزرعون الكتان ويبيعونه للمشتغلين بصناعة الكتان ، وكان هذا المزارع موفقاً في عمله سعيداً في حياته العائلية ميسور الحال مبسوط الرزق رحب الدار ، وقد انضم إلى جمعية الشريط ، ولم يطمئن إلى أخلاق رئيس محفل الناحية المدعو ديثين لأن هذا الرجل كان فظاً مطبوعاً على القسوة مولعاً بالشر والأذى شديد التعصب ، ووجد لنش إن ديثين يحمله على أعمال فظيعة لا يسيغها طبعه وتنفر منها نفسه ، ولم يستطع الرجل كتمان تدمره وأعلن أنه ينوي الاستقالة من الجمعية ، فلما نعى ذلك إل ديثين زار لينش ، ولما امتطى صهوة جواده ليعود أدراجه خلال المستنقعات ، انحنى على لينش وحده بنظرة خبيثة شيطانية قائلاً « هل عقدت العزم يالينش على الاستقالة ؟ » فأجابه لينش « نعم » ، فرد عليه معلم المدرسة قائلاً « إني في العادة لا أقدم النصائح ولكن إذا استقلت من الجمعية . . . » ولم يكمل جملة وغادر الدار .



ولما تلقى لينش هذا التهديد اعترف بكل شيء للقس ،  
ولكن القس لم يكن يستطيع أن يعمل شيئاً لمقاومة جمعية الشريط ،  
ولم يكن يستطيع كذلك أن يبدى رأياً أو يقدم نصيحة ، وتملك  
اليأس لينش فتقدم إلى رجال الحكومة وأبلغهم جلية الأمر ،  
فألقت الحكومة القبض على عضوين من أعضاء المحفل المحلي  
وحاكمتهما ، ونفذت الحكم فيهما ، وفر باقى الأعضاء ومن بينهم  
ديشين .

وعقد أعضاء الجمعية اجتماعاً سرياً فى منتصف الليل فى  
كنيسة صغيرة مهجورة ، وكان باترك ديفين مصمماً على الانتقام ،  
واستطاع أن يثير ثائرة الأعضاء ويسعّر أحقادهم ، فقصدوا  
منزل لينش راجلين وراكبين ، وكان بعضهم قد تسلح بالحرايب  
ليقوم بعمله الشيطانى ، وكانت دار لينش التى خيم عليها الهدوء  
والسكينة ملأى بالكثبان المحجف ، وألقى ضغث قد تمشت فيه  
النيران ، وكان ذلك كافياً لهبوب النار متأججة متلظية ، فبات  
من وقودها لينش وزوجته وأولاده ومساعدوه فى أعماله وهلكوا  
جميعهم .

واستفزع بعض الجناة الجريمة التى بعثهم على ارتكابها  
الحرص على الانتقام ، واعترفوا بما جنت أيديهم ، وهرب  
ديشين واختبأ فى دبلن واشتغل عاملاً فى الميناء ، وفى ذات يوم

ثار غضبه ، فصاح بأحد العمال قائلاً « لقد أكلت النيران رجالاً حتى أفنتهم ولم تبق منهم رقماً ، لأنهم ضايقوني » وكان قوله هذا كافياً للفت النظر إليه وبحث أحواله ، ولم يمض على ذلك سوى بضعة أسابيع حتى كانت جثته مع جثث عشرة رجال آخرين من أتباعه معلقة في القيود فوق أطلال دار الإوز الوحشى ، لتكون عبرة للمعتبر .

وقد انتهى أمر هذه الجمعية على وجه التقريب في سنة ١٨٣٥ ، وقد خلفتها في محاولة علاج مساوئ المجتمع الإيرلندى وتفريج ضائقته جمعية « فتية سانت بترك » ولما ضعف شأن هذه الجمعية نهضت في آثارها جماعة الفنين ، وقد كانت جمعية الشريط وجمعية فتية سانت بترك من الجمعيات المقاومة للبروتستانت والمعادية للملاك ، ولكن جمعية الفنين كانت جمعية قومية خالصة ولذا قصرت جهودها على مقاومة البريطانيين ، وكان من أسباب ضعف الجمعيات السابقة لهذه الجمعية أن الحكومة الإيرلندية عملت على السير في طريق الإصلاح ، وبخاصة فيما يتصل بتوزيع الأراضي الزراعية وامتلاكها ، وزالت بذلك الشكوى التي كانت سبباً في وجود أكثر هذه الجمعيات .

وقد نشأت جمعية الفتیان في الولايات المتحدة سنة ١٨٥٧ وكان غرضها الأصل استقلال إيرلندا ، ومؤسسا الجمعية هما

الإيرلنديان المنفيان الكولونيل چون ماهوني وميشيل روهني ، وكانت الجمعية سرية في بادئ أمرها ، وظلت تعمل في الخفاء حتى نوفمبر سنة ١٨٦٣ ، فقد رأت أن تبدى صفحتها وتبدأ في تنفيذ خططها فأعلنت الثورة ، وكانت الجمعية ترمي إلى أن تضم كندا وإيرلندا في جمهورية إيرلندية منفصلة عن بريطانيا العظمى ، وكثر أنصار الجمعية وجمعت مالا جماً وأسلحة كثيرة ، وبدأت تدرب الأعضاء سرّاً تدريباً حربيّاً ، وأخذت تستعين بالصحافة والنشرات على تأييد فكرتها وإذاعتها ، وقامت ثورتان فاشلتان في إيرلندا ، وأرسلت حملتان إلى كندا من الولايات المتحدة يسندهما أسطول مكون من قوارب صغيرة على مقربة من نياجرا ، ولكن الأخبار ترامت إلى الحكومة في الوقت المناسب من الجواسيس والمخبرين ، وأخفقت الحملتان وشنق القادة .

ومن ١٨٧٢ أخذت الجمعية تنظم أمورها على أساس السرية وتراعى الاستخفاء والاستتار ، وبدأت التفكير في استعمال الديناميت ، وكشفت مستودعات للديناميت في كورك وبرمنجهام ومانشستر ولندن . وحاول رجلان من أعضاء الجمعية نسف جسر لندن ، ولكنهما لم يوفقا ولقيا حتفهما ، وحاول أعضاء الجمعية نسف بعض المباني العامة ، ولكنهم لم يستطيعوا أحداث سوى القليل من الضرر ، وحاول عضو من أعضاء الجمعية

إلقاء قنبلة من الديناميت من شرفة الغرباء في دار البرلمان البريطاني على منصة رئيس الجلسة فألقى القبض عليه .

وفي السنة التي بدأت الجمعية تدبر مؤامرات النسف بالديناميت قتل في حديقة فونكس بدبلن اللورد فردريك كافندش رئيس وزراء إيرلندا ووكيله توماس بيرك ، وانقلب أحد القتلة - جيمس كارى - شاهد ملك ومنح عفواً ، ولكنه أبعد عن البلاد ، ونفذ حكم الإعدام في سائر القتلة ، غير أن جيمس كارى لم يعيش بعدهم طويلاً ، فقد أطلق عليه الرصاص رجل يدعى أورونبيل ، وبالرغم من عطف الرأي العام على هذا الرجل فإنه حكم عليه بالإعدام وأعدم .

وظل الأيرلنديون يدبرون المؤامرات ويجهدون ويناضلون لتوحيد إيرلندا واستقلالها ، ونشأت جمعية « إخوان الجمهورية الأيرلندية » ، وبدأت تعقد اجتماعاتها في السر والخفاء ، وأخذت تدريب الشبان الأيرلنديين على الحرب والمقاومة واتباع خطة جمعية الفتیان ، وكان من أعضائها « ديثاليرا » وسرعان ما برز بينهم ، وجاءت الحرب العالمية الأولى فرأى فريق من جيش المتطوعين الذي كونه الجمعية أن يساعد إنجلترا ويحارب في فرنسا ، وأن الإنجليز سيقدرّون هذا الحميل ويساعدون إيرلندا على نيل الاستقلال ، ورأى فريق آخر السير على السياسة

التقليدية التي تقول إن الشدائد التي تلم ببريطانيا هي الفرصة المتاحة للإيرلنديين . وأطلق الفريق على نفسه اسم « المتطوعين القوميين » وأطلق الفريق الثاني على نفسه اسم « المتطوعين الإيرلنديين » ، وكان من زعماء هذه الجمعية البارزين « أرثر جريفث » و « ميخائيل كولنز » و « دى قاليرا » وقد أقاموا حكومة ثورية جمهورية في إيرلندا ، وأصبحت جماعة « المتطوعين الإيرلنديين » تسمى « جيش الجمهورية الإيرلندية » . ولما حاول الإنجليز القضاء على هذه الحكومة تصدى جيش الجمهورية الإيرلندية لمقاومتهم ، واستهدف المتطوعون للأخطار الشديدة ، وطال الصراع بين الفريقين حتى أدركهما السأم وأرسل لويد جورج إلى دى قاليرا يدعوه للمفاوضة ، وعقدت هدنة بين الفريقين وأمضيت المعاهدة في ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وصافح ميخائيل كولنز لويد جورج . وفي ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٢ قتل كولنز ، وكان سبب قتله أنه أمضى المعاهدة التي سمحت بأن تظل ألستر مرتبطة ببريطانيا ، وكان دى قاليرا من الزعماء الذين لم يرضهم ذلك ، وليس من همى في هذا الكتاب تتبع الخلاف الذى نشب بين أعضاء هذه الجمعية وتعارض خططهم ، وواضح من هذا العرض السريع أن الجمعيات

السرية لعبت دوراً هاماً في حياة الأمة الإيرلندية وكان لها أقوى  
أثر فيما نالته إيرلندة من استقلال ، وقد أظهر الإيرلنديون في  
جهادهم الكثير من ضروب الصبر والمثابرة والثبات .

## النهـلست أو العدميون

عقدت المحكمة القيصرية جلستها الأخيرة ، ولاحق على  
القاضي لوائح الإعياء ، فقد استمرت المحاكمة أياماً عدة ،  
ورن صوت النائب العام وظهر الملل والإجهاد على الجند  
المصطفة والمساجين الذين تجاوز عددهم الخمسين ، والمحامين ،  
والذين جاءوا لحضور الجلسة ومشاهدة المحاكمة .

وانحنى القاضي إلى الأمام فبان على الحاضرين في القاعة  
جميعهم الاهتمام الشديد ، وقوى تطلعهم واستشرافهم ، وحجج  
القاضي بطرفه الفتاة الضاوية الهزيلة « صوفيا باردينا » وبأهلها  
« أترغبين أن تقول شيئاً قبل أن تصدر المحكمة حكمها ؟ »  
فسكن اللغط وساد الهدوء ، وتقدمت الفتاة التي لا تتجاوز  
سنها الثالثة والعشرين في هذا الصمت الشامل من بين حراسها  
من جنود القوزاق وقد شحب وجهها لأنها قضت في السجن  
عامين قبل المحاكمة وأجابته في بساطة « نعم »

وفي أناة وبطء ويردد بدأت تلقى في ألفاظ متخيرة وعبارات  
دقيقة معبرة خطبة من أبلغ الخطب التي أقيمت في قاعات  
المحاكم ، وكانت كلماتها موضع دهشة زملائها المساجين



ولإعجابهم ، واستحسان الحاضرين جميعهم .

قالت وقد دوى صوتها في أرجاء المحكمة المستمعة المصغية « إلى متأكدة وواثقة الثقة كلها أن بلادنا التي تغط الآن في الرقاد ستستيقظ وستكون يقظتها رهيبة مخيفة ، وسوف لا تسمح بأن توطأ حقوقها بالأقدام ، ويدفن أبناؤها أحياء في أنقاب سبيريا ، وسيرفع المجتمع النير المهين عن عنقه ، وينتقم لنا ، فاضطهدونا واقتلونا أيها القضاة والحلادون ، فإننا سنظل نقاومكم بالقوى الأدبية مادمتم تملكون القوى المادية . . . ومعنا أفكار الحرية والمساواة وليس في وسع حرابكم اختراقها ! »

ولكن هذا الخطاب البليغ لم يكن مجدياً ، ولم تشفع لها بلاغتها ولا أنوثتها ولا شبابها الغض ولا جمالها ولا الإجازة الجامعية التي كانت تحملها ، ولم يكن هناك بد من تنفيذ العقوبة ، وكان ذنب صوفيا باردينا أنها وزعت رسائل تتضمن أفكاراً عن الحرية في المصنع الذي كانت تعمل به .

ونطق القاضي بالحكم الصارم ، وكان يقضى عليها بالأشغال الشاقة مدة تسع سنوات في سبيريا ، وقضى على الخمسين سجيناً الآخرين بأحكام تتردد بين خمس سنوات وعشر سنوات لمثل هذا الذنب الذي أدينبت به صوفيا باردينا ، كان ذلك في عام ١٨٧٧ .

وفي هذه السنة نفسها كانت محاكمة مائة وثلاثة وتسعين من  
من الروسيين ، وقد وجه اتهام في بادئ الأمر إلى سبعمائة  
وسبعين من الناس ، وقضى معظمهم سنوات عدة في السجن ،  
لأن التحريات استغرقت أربع سنوات ، وهلك منهم في السجن  
خلال هذه المدة سبعون ، وحكم أخيراً على ستة وثلاثين بالنفي  
إلى سيبيريا ، وكان بكل مقاطعة من مقاطعات روسيا مثل  
هذه المحاكمة ، وكانت شجاعة المسجونين الرائعة وتجملدهم  
وثباتهم يثير الإعجاب حتى في نفوس هؤلاء الذين يمقتون  
مثلهم الأعلى ويستنكرون أساليبهم

وعملت الحكومة من ناحيتها على إخماد هذه الحركة وحقها  
بأى ثمن ، وبكل وسيلة ، فكان أقل اشتباه يؤدي إلى الاعتقال  
والسجن ، وكان الحكم بالأشغال الشاقة مدة عشر سنوات  
عقوبة من ألقى خطبة في اجتماع خاص لفئة قليلة من العمال .  
وكثر الجواسيس وانطلقوا في كل مكان مرهفي الأذان يقلبون  
أجفانهم في الناس ويتفرون الوجوه لعلمهم يظفرون بفريسة  
أو يقعون على صيد .

وكان العدميون في بادئ الأمر أصحاب فكرة يدعون إليها  
ويبشرون بها ، ولم يكونوا مدبري مؤامرات ولا شاهري سلاح ،  
ولنما كانوا أعضاء في جمعية أدبية فلسفية ، ظهرت وازدهرت

فما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٧٠ ، وقد تأثر أعضاؤها  
 بآراء هرزن وباكونين ، وقد تحمس للإصلاح  
 الاجتماعى والسياسى أبناء الطبقات الميسورة وفتياتها ، وأعرضوا  
 عن النعمة التى تقبلوها فى أعطافها والدعة التى نشأوا فى ظلها ،  
 ولم يحفلوا بمشاعر الآباء والأصدقاء ، ونحالتوا المزارعين والعمال ،  
 ونجحت دعوتهم فى الطبقات المتعلمة المستنيرة ، والغريب أنهم  
 أخفقوا فى إثارة اهتمام المزارعين ، وأمعن دعاة الثورة فى إذاعة  
 الدعوة والتبشير بالأفكار الثورية ، ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً يذكر ،  
 وكانت تنقصهم التجربة وتعوزهم الحيلة ، ولذا أثاروا اشتباه  
 الحكومة ، وسرعان ما امتلأت بهم السجون ، وغصت  
 المعتقلات بطلبة الجامعات ، وقاومت الحكومة دعوتهم مقاومة  
 عنيفة صارمة ، وأصبحت الكلمة فى الجمعية للمتطرفين  
 الغلاة ، وأنشأت الجمعية فرعاً للإرهابيين ، وبدأوا عملهم  
 باغتيال الجواسيس ، وتطرفوا وأمعنوا فى الإرهاب ، حتى قتلوا  
 أكبر رأس فى روسيا وهو القيصر ، وكانت الأوامر التى  
 تصدرها الجمعية إلى فروعها موجزة وفى الصميم ، فهى تبلغ  
 العضو أنها ترسل إليه « كتباً ومسدسات » وتقول له « اقتل ،  
 أطلق الرصاص ، اعمل على إثارة الشغب وإحداث القلاقل »  
 وكانت أول إشارة لبدء الإرهاب الذى ميز المرحلة الثانية

من مراحل حياة جماعة العدميين هي طلبة المسدس في يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٧٨ ، فقد أمر الجنرال تريپوف رئيس شرطة بطرسبرج بجلد مسجون سياسى اسمه بوجولينوف لأنه خالف أوامر السجن في مسألة تافهة ، وكان هذا الجنرال مكروهاً في كل مكان ومن الناس كلهم ، وتبلورت هذه الكراهة العامة الشائعة في نفس الفتاة فيرازا سولتس فعقدت العزم على قتله ، وكانت فيرا قد سجنّت وهي في السابعة عشرة من عمرها مدة سنتين ، لأنها تسلمت رسائل لأحد العدميين ، وبعد انقضاء هذه المدة أخذت تنتقل في روسيا من مدينة إلى مدينة ، فقد عرفت فظائع الحبس الانفرادى ، ولم يكن لها سابق معرفة بتريپوف لتضمّر له الضغينة وقد زادها هذا إصراراً على المضي في تنفيذ خطتها ، ففي صباح يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٧٨ وقفت له بالمرصاد ، وتظاهرت بتقديم ورقة إليه ؛ فلما شرع في قراءتها أطلقت عليه رصاصة من مسدسها ، فسقط على الأرض وقد جرح جرحاً خطيراً ، وقابلت القبض عليها بهدوء واتزان ، وكانت محاکمتها شاهداً عجيباً على ما يضمّره الناس من الكراهة والبغضاء لرئيس الشرطة الجريح ، فإن المحكمين رأوا تبرئتها رغم اعترافها بالجرّيمة ، وقد أدهش هذا الحكم الناس حتى المعتدية نفسها ، التي كانت على أتم استعداد للتضحية بحياتها ،

والأعجب من هذا أن هذا الحكم قوبل بالقبول في كل مكان ، ورأى الناس في تبرئتها حكماً على نظام الشرطة العام لا على الرئيس وحده ، وبطبيعة الحال ذهب رجال الشرطة غير هذا المذهب ورأوا رأياً يخالف هذا الرأي ، فلما أطلق سراح المتهم بدأ الشرطة يطاردونها ، وأوقفوا العربدة التي أقلتتها في الشارع المجاور ، ولكنهم نجحوا في إثارة الشغب ، فإن الناس رفضوا أن يروا قيراً وقد أعيد القبض عليها ، وانتهزت هي فرصة التصادم بين الشعب والشرطة ولاذت بالفرار ، ورحلت في أمان إلى سويسرة ، وهاج القيصر وماج ، وأمر بالبحث عن قيراً في كل أنحاء المدينة ، ولكن البحث جاء متأخراً ، ورأى القيصر أن يزور بشخصه الجنرال الجريح ويرقيه إلى منصب مستشار الدولة .

وقد أتاحت قسوة رجال الشرطة وحقاقتهم الفرص الكثيرة لاشتداد غضب القيصر واهتياجه وثورته ، فقد ذكر اسم الجنرال مستسوف في قضية خاصة بوصية مزورة وتحويلات مالية زائفة ، وكان موقفه في القضية معيلاً مزيباً ، ولكن العجيب أنه أخذ بعد ذلك يعنى بالشرف والسمعة الحسنة وعمل على أن ينقذ سمعته بقتل جميع الذين أدوا شهادات ضارة بها ، وألقى في غيابة السجن بكل من كانت وظيفته تبيح له حق

حبسه أو اعتقاله ، وكان يجيع المعتقلين حتى يموتوا ، ويثقل المرضى منهم بالقيود ليزداد مرضهم شدة ، وكان يقول عن أعماله الإجرامية إنها أوامر صادرة من القيصر .

وكان العدميون يعرفون جلية الأمور ، ولذا عقدوا اجتماعاً سرياً وأصدروا في اجتماعهم حكماً بإعدامه ، ففي يوم ١٦ أغسطس بينما كان الجنرال خارجاً من حانوت أحد باعة الحلوى في ميدان القديس ميخائيل ، أطلقت عليه رصاصتان من مسدسين ، فخر صريعاً على الأرض ، ووثب القاتلان إلى عربة كانت تنتظرهما ، وأطلق السائق العنان لخيله ، فسارت العربة بسرعة جنونية ، ومات الجنرال في الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم ، وبحث رجال الشرطة عن القاتلين في كل مكان بالمدينة ولكنهم لم يوفقوا في الاهتداء إليهما .

وضاعفت الحكومة جهودها ، وألغت طريقة المحكمين في الجرائم السياسية ، وتفرق شمل شعبة العدميين في بطرسبرج ، وألقي القبض على ستين من أعضائها ، ولكن أربعة أو خمسة من الأعضاء ظلوا مع ذلك يباشرون سراً طبع جريدة « الأرض والحرية » التي كانت تصدرها الجمعية ، وكان لإصدار النشرات والرسائل أثر كبير في الإبقاء على الحركة ومدتها بأسباب القوة والنماء ، ولذا كان يعمل العدميون على موالاة

إصدار النشرات والرسائل بالرغم من الرقابة الشديدة والمطاردة العنيفة ، وكانوا يستهدفون في هذا السبيل لأخطار جمة ويحتملون تضحيات كثيرة .

وقد تمكن يهودى بارع اسمه هارون زوندلثك من تهريب مطبعة إلى بطرسبرج في سنة ١٨٧٧ ، وظلت هذه المطبعة توالى عملها مدة أربع سنوات ملأى بالأخطار ، وكانت المنشورات والإعلانات والبيانات كأنها تبرز من جوف الأرض ، وتصل إلى العامل في مصنعه والجنود في ثكناتها والموظفين في دواوينهم ، بل كان القيصر نفسه يجدها ملقاة في أركان قصره ، وفوق مكتبه ، ولم تكف جريدة « الأرض والحرية » عن الظهور بعد القبض على الكثير من أعضاء الجمعية ، وتبدد شمل باقي الأعضاء ، ولم يكن رئيس تحرير الجريدة ولا الأعضاء الذين يشتركون في تحريرها يعرفون المكان الذى تطبع فيه وكان حلقة الاتصال بين إدارة التحرير وبين القائم بالطبع شاب أرستقراطى النشأة ابن أحد قواد الجيش ، وكان يشغل منصباً حكومياً عالياً ، وكان يحمل الأصول في محفظة أوراقه ، وكان القائمون على الطبع أربعة من أعضاء الجمعية وقد قضوا أربعة أعوام وهم مهددون في كل لحظة بكشف أمرهم والقبض عليهم ، وكانوا



قد احتاطوا للطوارئ ورتبوا أمورهم بحيث يتمكنون من إخفاء كل شيء في خلال دقائق معدودة ، وأتاحت الخيانة بعد أربع سنوات الفرصة لرجال الشرطة .

وازدادت رقابة الشرطة شدة وكثرت الاعتقالات ، وأمعن العدميون في اتباع الأساليب السرية ، وولجأوا إلى طرق كثيرة لحماية أنفسهم ، فكانوا لا يختارون أمكنة لعقد اجتماعاتهم إلا بعد البحث الشاق والاحتياط التام ، ويراعون أن تكون النوافذ في مكان الاجتماع موضوعة بحيث يسهل إعطاء الإشارة منها ، وأن تكون الحيطان سميكة والأبواب قوية متينة ، وكان الأعضاء يختارون على الدوام حجرات واقعة بين طابقين ، فإذا فجأهم الشرطة سيطروا على السلام حتى يتمكن الأعضاء في داخل الحجرة من إبادة الوثائق الموجبة للشبهات ، ولم تكن هذه الاحتياطات من قبيل اللهو أو العبث ، فقد استطاع خمسة من أعضاء الجمعية أن يهزموا اثني عشر رجلا من رجال الشرطة هاجموا بغتة إدارة جريدة « إرادة الشعب » في مدينة موسكو .

وكان من أعضاء الجمعية رجل اسمه إسكندر ميشيلوف وقد أطلقوا عليه لقب « الحارس » لإصراره الدائم على اتخاذ الحيلة واصطناع التقية ، ونقده الشديد للأعضاء الذين كانوا

يقصرون في هذه الناحية ، وكان يتعمد أن يقتنى أثر الأعضاء في الطريق ليرى هل يحتاطون لأنفسهم ويحاذرون أولاً ، وكان يتجسس أنخبار جواسيس الحكومة حتى أصبح خبيراً بهم عليمًا بأحوالهم لا تخفى عليه حركاتهم ولا تغيب عنه أساليبهم وحيلهم ، وكانت معرفته الصميمة بالطرق والأماكن الصالحة للاختباء تنقذ أعضاء الجمعية من أيدي الشرطة ، وتبي لهم وسائل الإفلات والهرب ، وكان لا ينى يغير مكان إقامته ويطلب الأعضاء على الدوام بأن يتخذوا حذوه . وقد خدم الجمعية خدمة جليلة بإيجاده نظام « المخبئين » ، وكان هؤلاء المخبثون من الأعضاء الذين تمنعهم مناصبهم الحكومية أو مراكزهم الاجتماعية من المشاركة العملية في أعمال الجمعية ولكنهم كانوا مستعدين لأن يتخذوا من مكانتهم وتباعدهم عن مواطن الشبهات وسيلة لتهيئة مخايب لأعضاء الجمعية العاملين وحمايتهم وتيسير سبل الفرار لهم ، وكان من هؤلاء سيدة من أصل دانماركى في السبعين من عمرها تدعى مدام هورن ، وكان زوجها موظفاً في إدارة الشرطة ، وقد نقت على السفير الدانماركى لأنه رفض أن يزكى زوجها ليرقى لوظيفة أسنى من وظيفته ، وعطفت على أعضاء هذه الجمعية المناهضة للنظام القائم ، وأثبتت أنها صديقة للجمعية وفيه نافعة ، وكانت

تخبي الأعضاء في منزلها وتوافيهم بالأخبار التي تسمعها من زوجها المرح الثرثار ، وتحفظ بالكتب المحرمة الممنوعة ، وقد استطاعت بفضل مكانتها وسنها وحزمها وحضور بديتها أن تنفي عنها الشكوك وتبعد الشبهة

وكانت اجتماعات الجمعية في أغلب الأوقات تسفر عن إصدار الحكم بقتل أحد كبار رجال الشرطة : انتقاماً منهم للمعاملة القاسية التي يعاملون بها أعضاء الجمعية المعتقلين ، ففي ٩ فبراير سنة ١٨٧٩ أطلق الرصاص على الأمير الكسيس كراپوتين حاكم خراكوف ، وهو خارج من حفلة راقصة ، وكان قد عامل بعض المعتقلين بقسوة بالغة ، حتى آثروا الانتحار على احتمال إسرافه في التنكيل بهم وتعذيبهم ، واستطاع جولدنبيرج - القاتل الذي انتقم لهم - الإفلات والهرب ، ولم يمض على هذا الحادث شهر حتى قتل مرزكى العدى رئيس الشرطة السريين ، واستطاع هو كذلك الفرار ، وكان الجنرال درنتلن القتل تقع عليه تبعة شتى المساجين الذين حاولوا الهرب من السجن لسوء المعاملة ، فوضعت الجمعية اسمه في قائمتها السوداء وتولى جولدنبيرج المذكور تنفيذ الحكم .

وكان أعضاء الجمعية في بادئ الأمر يتهمون كبار الموظفين بالخشع والسرقة والرشوة والقسوة المنكرة ، ويكتفون

بطلب عزلهم أو محاكمتهم ، ولا ينوون شراً للقيصر ، ولكن الأمور سارت إلى نهايتها المنطقية ، واختمرت فكرة الاعتداء على القيصر نفسه ، لأنه رأس هذه الحكومة الفاسدة ، وحامى حمى هذا النظام الظالم ، فوضع أعضاء الجمعية لغماً فى نيكولايف الواقعة على البحر الأسود لنسف القيصر ، ولكن الشرطة كشفت الأمر ، وتطوع لقتل القيصر جولدنبرج قاتل الأمير الكسيس كراپوتين ، ونافس فى التطوع طالب متهوس اسمه سولوڤيف ، واشتد الخلاف بينهما من أجل ذلك ، واحتدمت المناقشة ، وقال الطالب فى أثناء المناقشة الحامية وقد تملكته الحماسة : « إن مسألة القيصر من الأمور التى تخصنى وليس لى مندوحة عن القيام بها ، ولن أتخلى عنها لرجل آخر » واضطر جولدنبرج إلى التنازل عن قتل القيصر لهذا الشاب المتحمس المتعصب ، وفى اليوم الثانى من إبريل سنة ١٨٧٩ أطلق أربع رصاصات على القيصر وهو يتمشى فى ساحة القصر ، وقبض عليه قبل أن يقترب من القيصر ليتمكن من إصابته وشنق يوم ٩ يونيو وظل إلى النهاية محتفظاً بثباته ورباطة جأشه ولما تقدم إلى المشنقة صاح معلناً أن الجمعية ستنتقم له .

وشرعت الحكومة بعد ذلك فى اتخاذ احتياطات شديدة ،

وقسمت الإمبراطورية إلى ست مناطق ، وجعلت لكل منطقة حاكماً عاماً له سلطة ديكتاتورية ، وراقبت الشرطة المنازل جميعها ، وقدموا تقارير عن حالة كل غريب طارئ ، أو كل من يشتبهون فيه ، وكان كل من تحوم حوله شبهة أو يقصر في تقديم البيانات الوافية عن سلوكه وأعماله يزج به في غيابات السجون ، ولم تمض أشهر حتى غصت السجون بالمساجين ، ولكن هذه الإجراءات الشديدة لم تنل من رجال الجمعية ولم تثن عزمهم ، فعقدوا مؤتمراً سرياً استمر من ١٧ يونيو إلى ٢١ منه ووضعوا خططاً خطيرة لنسف القطار الإمبراطوري أثناء رحلته من القرم إلى بطرسبرج ، ولكي تنجح خططهم وضعوا ألغاماً في ثلاث أجهزة مختلفة ، ولكنهم مع ذلك أخفقوا ، وقد وضعوا أحد الألغام على مقربة من أودسا ، وفي اللحظة الأخيرة سار القطار القيصرى من طريق آخر ، ووضع لغم آخر عند الكسندروفسك ونجا منه الإمبراطور دون أن يدرى ، لأن المادة القابلة للانفجار لم تنفجر ، وكان اللغم الثالث قد وضع في مسكو ، وقد انفجر هذا اللغم ، ولكنه أصاب القطار الذى كان يحمل حقائب القيصر ، وكان قد تقدم القطار الذى كان يقل القيصر في الجزء الأخير من الرحلة ، وعجزت الحكومة عن الاهتداء إلى الأشخاص الذين قاموا بوضع الألغام ،

ولم يفرح المتآمرون لنجاتهم بقدر ما حنقوا لأن مجهوداتهم ذهبت هباءً منثوراً ، ولكن بالرغم من عدم اهتمام الحكومة إلى الذين تولوا وضع الألغام ، فإنها مع ذلك قبضت على بعض أعضاء الجمعية ، وكان ممن ألقت الحكومة القبض عليهم قبل رحلة القيصر جولدنبيرج قاتل الأمير الكسيس ، وأراد هذا الرجل أن ينجو برأسه ، فاتهم مئات من زملائه أعضاء الجمعية ، وبادرت الحكومة إلى إلقاءهم في السجن ، ولكنه لم ينجح لا في وقف محاولة الاعتداء على القيصر ، ولا في إنقاذ حياته ، ولما وجد أن خيانتته غير مجدية انتحر .

وكأنما كان القيصر يحمل تعويذاً يقيه الأخطار ويدفع عنه السوء ، فبعد أشهر قلائل قام العدميون بمحاولة أخرى لقتله ، وقد سبق هذه المحاولة إرسال إنذار للقيصر مضمونه أن الجمعية ستذيقه الموت إذا لم يمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية ، وكان ذلك في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٠ ، ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى قامت الجمعية بمحاولة جديدة لاغتيال القيصر ، وكانت محاولة في غاية الخطورة فقد أراد بها العدميون قتل القيصر في مأمنه ، وذلك بنسف قاعة الطعام في القصر القيصرى المعروف باسم « قصر الشتاء » .

وكان يعيش في ظل هذا القصر ويرتع في بحبوحته أكثر

من خمسة آلاف من الناس ، أكثرهم لا يعرف له عمل معين ، وكثير منهم أصدقاء لخدم القصر وحشمه ، وبين هذا الجمع الحاشد من الخدم والأتباع والفضوليين كان رجل من العمال اسمه شالترين ، وكان هذا الرجل نجاراً بارعاً في عمل الأثاث والزخرفة ، وعثر رجل الشرطة على رسم للقصر القيصري مع أحد المسجونين ، فاستوجب ذلك إجراء تفتيش عام في كل ناحية من نواحي القصر ، وكان من الأقسام التي فحصت بعناية القسم الخاص بنجاري القصر ، ولم يكشف البحث والتنقيب شيئاً يدعو إلى الريبة والحذر ، أو الاشتباه وسوء الظن ، ولكن بالرغم من هذا البحث الدقيق فإن النجار البارع الذي منح مكافأة خاصة فوق مرتبه لبراعته في عمله كان يشكو صداعاً شديداً في رأسه مدة أسابيع ، وكان سبب هذا الصداع رائحة النتروجلسرين المتصاعدة من الديناميت الموضوع في داخل الوسادة التي كان ينام عليها ، ولم يخطر ببال الجندی الموكل بحراسة هذا القسم من أقسام القصر أى خاطر من خواطر الشك في هذا النجار القدير ، بل حاول أن يصهر إليه ويزوجه ابنته ، وكان الفساد العام في القصر القيصري قد وصل إلى حد أن شالترن النجار الأمين كان يجد نفسه مضطراً إلى أن يسرق من الطعام وبعض الأشياء الزهيدة ليدفع عن نفسه الشبهة



ويظفر بالثقة ، وقد وفق في ذلك ، ففي اليوم الخامس من شهر فبراير كان قد وضع في مكان تحت قاعة الطعام القيصريّة خمسين كيلوجراماً من الديناميت ، وكانت قد أعدت موائد لمائة من كبار رجال الدولة والسفراء الأجانب ، بمناسبة إقامة حفلة غداء تكريماً للأمير بلغاريا ، ووجد شالترن متسعاً من الوقت لمبارحة القصر قبل حدوث الانفجار

وقد انفجر الديناميت وأحدث دويّاً مزعجاً ، ونسفت قاعة كبيرة من قاعات الطعام يبلغ طولها عشرة أقدام وعرضها ستة أقدام ، واهتز القصر جميعه اهتزازاً عنيفاً وتداعت أركانه ورواسيه ، وقتل خمسة من الحراس وجرح خمسون ، ولكن حادثاً عرضياً كان قد أخرّ القيصر وضيوفه عن الاجتماع في حجرة الطعام ، وبينما كان الطهاة في المطبخ غاضبين لهذا التأخير ، وقع هذا الانفجار المروع ، وأخفقت حفلة الغداء إخفاقاً تاماً ، ولكن الضيوف وعلى رأسهم القيصر نجوا بأعجوبة !

وعاش شالترن سنتين بعد هذه الحادثة ، ولم يعرف الدور الذي لعبه فيها إلا حينما سيق إلى المشنقة في يوم ٢٢ مارس سنة ١٨٨٢ لارتكابه جناية أخرى ، فقد افتخر قبل أن يتقدم إلى المشنقة بأنه هو الذي تولى نسف قصر الشتاء .

وأصدرت الجمعية بعد نسف القصر نياناً أبدت فيه أسفها لمصرع الحراس ، ولكنها أعلنت في الوقت نفسه أنها ستظل متبعة بخطتها حتى يوافق القيصر على إنشاء مجلس حر للنواب ، وكانت الإشاعات قد تناثرت عن الدستور القادم ، وكان القيصر الإسكندر الثاني نفسه ميالاً إلى الإصلاح ، ولكنه لم يلق تشجيعاً من مستشاريه ، وقد أدخلوا في روعه أن الإصلاح لا يؤدي إلا إلى مضاعفة الإجرام ، والإمعان في إتيان الفظائع والمنكرات . وكان رد القيصر المباشر على هذه المحاولة هو تعيين الكونت لوريس ميليكوف ديكتاتوراً ، واشتد في اضطهاد كل من عرف بميله إلى الأفكار الحرة ، وقبل قدوم الربيع في سنة ١٨٨٠ أرسل من سجون موسكو إلى مناجم الملح في سبيريا أكثر من ثلاثة آلاف سجين ، وبلغ عدد الذين أرسلوا إلى سبيريا في سنة واحدة اثني عشر ألفاً .

ولكن النقمة التي حلت بالجمعية واشتداد غضب القيصر عليها ، وإمعان الحكومة في الاعتقال والنفي إلى سبيريا زادت العدميين عناداً وإصراراً وثباتاً وإقداماً ، وتقدم سبعة وأربعون من الأعضاء متطوعين لقتل القيصر ، واستطاعت الجمعية في هذه المحاولة الأخيرة تحقيق غايتها ، فقد قتل القيصر يوم ١٣ مارس سنة ١٨٨١ .

كان القيصر عائداً في غربته من عرض عسكري قرب  
 بطرسبرج ، فلوحت الفتاتان جسي ولقمان وصوفيا بيروسكايا  
 بمنديليهما ، وكان هذا التلويح هو الإشارة المتفق عليها بين  
 المتآمرين من أعضاء الجمعية ، فألقى رايساكوف قبلة ،  
 وانفجرت القبلة خلف العربة التي كان يستقلها القيصر ،  
 وجرح عدد من الجنود ، فترجل القيصر ، وفي تلك اللحظة  
 مضى إليه قدماً إجناتيوس جونفزكي وألقى قبيلته في عناية  
 وإحكام ، وتبع ذلك انفجار مروع مزق القيصر والذي ألقى  
 القبلة ، ولقى جونفزكي حتفه قبل القبض عليه ، أما القيصر  
 فإنه لم يعش بعد ذلك سوى ساعة ونصف ساعة .

ويروى أن القيصر أبصر بعد انفجار القبلة الأولى صبياً  
 بائساً ارتدى على الأرض ، وقد أخذ منه الألم ، فأوقف العربة  
 ووثب منها بين الجمهور ليرى ما أصاب الصبي ، ويقدم  
 ما يستطيع من المعاونة ، ولم يلحظ القاتل الآخر الذي انتزع  
 القبلة من صدره وكان على وشك إلقائها .

وكان جونفزكي ابن مزارع صغير رقيق الحال ، رزق أحد  
 عشر من الولد ، وجاهد جهاداً شاقاً ليعولهم وينشئهم ، وأثرت  
 في أعصابه المعركة الطويلة التي نشبت بينه وبين الفقر المدقع  
 ففقد عقله ، وكان جونفزكي طالباً نجياً سباقاً لأقرانه ،

وقد أرسل إلى بطرسبرج لإتمام تعليمه ، وانضم في أول أمره إلى اتحاد الطلبة وعرف بين زملائه بالاعتدال والرزانة ، ولكن ما رآه من اضطهاد الحكومة للعلميين وذكريات نشأته المرة القاسية وضيقه بالأحوال السائدة في روسيا جعله ينضم إلى صفوف الإرهابيين ، وقد قتل المتآمرون الآخرون وإحدى الفتاتين شنقاً ، ولقوا جميعهم الموت بشجاعة وثبات .

ولم ترهب هذه العقوبة الإرهابيين ، فبعد مصرع القيصر عشرة أيام ألتى في شوارع موسكو مئات من بيض عيد الفصح ، وكان الذين يفتحون هذا البيض يجدون فيه خطاباً مفتوحاً موجهاً إلى القيصر إسكندر الثالث الذى خلف القيصر إسكندر الثانى ، ومضمون هذا الخطاب أنه إذا أباح حرية النشر ، أو حرية الكلام ، وحرية الانتخاب ، ووافق على وجود الجمعية العمومية ومنح المسجونين السياسيين عفواً عاماً ، فإن العلميين يعدون من ناحيتهم بمساعدة الجمعية العمومية التى تنعقد بغير قيد ولا شرط .

وكان رد القيصر إسكندر الثالث على هذه الطلبات المعقولة هو الإمعان فى الشدة وكم الأفواه ، وإخماد الأنفاس ، وأبى له عناده إلا الاستمسك بحقوقه الأوتقراطية جميعها ، وقد أرجئت حفلة تتويج القيصر من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٢ ،

ولم تتم إلا في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٣ ، وبولغ في الاحتياط لحماية القيصر من اعتداء الإرهابيين ، فتجمعت قوى الحكومة كلها في موسكو لهذه المناسبة ، ونشط الجواسيس ، وتجاهل العدميون هذه المناسبة تجاهلاً تاماً ، واغتنموا فرصة إقامة الحفلة في موسكو ليثيروا الشغب في بطرسبرج وغيرها من المدن الروسية الكبيرة ، وتوالت حوادث الاعتداء في السنوات التالية وأطلقت ماري كالزشنيا الرصاص على الكابتن كاتانسكي أحد كبار رجال الشرطة ولكنها أخطأته ، وهي ابنة أحد التجار ، وكانت سنّها لا تتجاوز التاسعة عشرة ، وحكم عليها بالأشغال الشاقة مدة عشرين سنة ، وكان أخوها قد حكم عليه قبل ذلك بالأشغال الشاقة مدى الحياة ، فأرادت أن تنتقم له ، ولكنها دفعت ثمن الانتقام غالياً .

وتلقى وزير الداخلية رسائل تهديد ، ونحشى الرجل على حياته ، فكان يكلف الدولة نفقات كثيرة ، لاتخاذ الاحتياطات الواقية ، وكان القيصر ورجاله بطبيعة الحال لا يجدون مشقة في ملء السجون والمعتقلات والمنافي بالذين تحوم حولهم الشبه ، وتتعلق بهم الظنون ، ولكن القيصر ورجاله في الوقت نفسه كانوا يعيشون كالأسرى في بيوتهم ، يصدق فيهم قول حافظ إبراهيم في وصف حياة السلطان عبد الحميد :

كان لا يعرف القرار بليل لا ولا يستلذ طعم الهجود  
 حذراً يرهب الظلام ويخشى خطرة الريح أو بكاء الوليد  
 وقام الإرهابيون بمحاولات مخففة لقتل القيصر إسكندر  
 الثالث ، وأرغم هذا الحكومة على التماذى فى الشدة ، والاعتداء  
 على الحريات ، وكثرت المحاكمات ، وتوالى إصدار الأحكام  
 الشديدة . وقد أساء ذلك إلى سمعة الحكومة الروسية ، وأظهرها  
 فى عيون الدول الأوروبية بمظهر الحكومة الطاغية المستبدة التى  
 تستذل الشعب وتستعبده ، وتسلبه حقوقه وتسومه الهوان ،  
 ونجست الحكومة الروسية من كثرة هذه المحاكمات العلنية  
 المزرية بسمعتها ، فلجأت إلى طريقة التخلص من الأشخاص  
 الذين تعدهم مشاغبين ، باتخاذ الإجراءات الإدارية ، وتحت  
 ستار هذه الإجراءات الإدارية كانت الحكومة تأخذ  
 الناس من بيوتهم وتنزعهم من وسط أسرهم ، وترسل بهم  
 إلى سيبيريا بغير محاكمة ويظل مصيرهم موضع التساؤل ومناطق  
 الدهشة ، وقد نفي الكثيرون إلى سيبيريا ، وقضوا نحبهم هناك ،  
 وكان بعض الذين تحل بهم النعمة يلتمسون أن يسمح لهم بأخذ  
 ما يكفى من الطعام خلال الرحلة الشاقة الطويلة ، وما يقيهم  
 غائلة البرد من الملابس ، فيتهمون بمخالفة الأوامر والخروج على  
 طاعة الدولة ومقاومة السلطة ، وبعضهم كان يطلق عليه

الرصاص ، وفي أثناء الرحلة كان الحراس يعاملون المتهمين أسوأ معاملة ، ويعتدون عليهم بالضرب والركل ، وكانت حالة السجون التي تنتظر هؤلاء البائسين المتعوسين سيئة كل سوء ، وكان الكثيرون منهم يقضون نحبهم بسبب سوء الحالة الصحية وانتشار الأمراض ، وقد أرسلت مدام « تشبريكوفا » رسالة مطولة للقيصر وصفت فيها أعمال أتباعه ، ووصلت إليه كذلك معلومات عن هذه الأحوال السيئة من مراجع أخرى ، وكل ذلك يجعله حقيقاً باللوم ومتهماً بالتقصير في حق رعيته وإهدار كرامتها والإساءة إليها ، وكانت مدام تشبريكوفا من سيدات الطبقة العليا ، وقد نفاها القيصر إلى القوقاز لأنها قررت الحقيقة ووصفت الواقع ، ولم يكن لها أية علاقة بجمعية النهلست .

وقد اضطر كثير من العدميين إلى الهجرة من روسيا ، تاركين أملاكهم ، مؤثرين حياة النفي والتشريد في البلاد الأجنبية على حياة الذل والاضطهاد في وطنهم وكانت الحكومة القيصرية ترسل جواسيسها وراءهم وتعنى باستطلاع أخبارهم وبخاصة في البلاد التي يكثر بها تجمعهم ، وقد وجد الجنرال سلفرسكوف — أحد هؤلاء الذين آثروا الهجرة من بلادهم — ميتاً في أحد فنادق باريس ، وفي مايو سنة ١٨٩٠ ألقى القبض



في باريس على أربعة عشر عضواً من أعضاء جمعية النهلست ،  
وكان أكثرهم يرتزقون من إعطاء دروس في الموسيقى أو اللغة  
الروسية ، أو إلقاء محاضرات في العلوم أو الكتابة في الصحف ،  
وكان بعضهم يتخفى ويتستر ليتحاشى الجواسيس ، ويجنب  
البلاد التي أظلمت بحمايتها المتاعب والمشكلات ، أما الأعضاء  
الذين كانوا يعملون في الخارج من أجل قضية الجمعية  
فكانت حياتهم مستهدفة على الدوام للخطر ، وبخاصة من  
الجواسيس الذين كانوا يندسون في داخل صفوفهم .  
وكان جماعة من هؤلاء يتلاقون في أحد منازل باريس ، وكان  
بعضهم قد اشترك في مقتل رئيس وزراء روسيا سنة ١٩١١ ،  
وقد أطلق موردكا بوجروف عليه الرصاص في مسرح  
كيف ، وفي حضور مئات من الناس ، ومن بينهم بعض  
أعضاء الأسرة المالكة ، وكان هؤلاء الأعضاء جميعهم من  
الرجال المحجرين الموثوق بهم ، وقد عقدوا اجتماعاً خاصاً لم  
يتخلف عن حضوره سوى رجل واحد ، فاشتبهوا في أمره  
ورجحوا أنه جاسوس من هيئة الأوكرانا - وهم جماعة الشرطة  
السرية الروسية - وتحقق ظنهم وعرفوا أن الرجل خان عهدهم ،  
فصمموا على الانتقام منه ، ولكنه أسرع في العودة إلى روسيا .  
ولما حدثت الثورة الروسية ، أصبح العدميون يعدون من

الرجعيين ، وطاردتهم الحكومة مطاردة عنيفة ، وقد نجح نظام « الأوجي » حيث فشل نظام الأوركانا . وقد عاد كثيرون من النهلست إلى روسيا لما استولى كرنسكى على أزمة الأمور ، وتقلد بعضهم المناصب العالية ، وكان من هؤلاء بوريس سافنكوف ، فقد أصبح حاكم بتروغراد ، ولما جاء عهد سيطرة لينين رجع المنفيون السابقون إلى باريس ، ونظموا حركة الروس البيض لمقاومة الشيوعيين .

وقد اجترأ سافنكوف على العودة إلى روسيا سنة ١٩٢٤ ، وألقى القبض عليه ، وسجن فانتحر في السجن ، وتولى بعده كوتجف تنظيم حركة مقاومة النهلست والروس البيض للثورة الروسية ، ولكنه اختفى بعد سنة ولم يهتد له على أثر ، وشغل مكانه الجنرال ميلر ، فاختفى هو كذلك في ظروف غامضة لم يكشف عنها النقاب ، وحامت الشبهة حول الجنرال سكوبلين أحد الذين كانوا يجتمعون به ، واختفى بعد ذلك الجنرال سكوبلين نفسه ، ويرجح أن رجال الأوجي استعانوا بالجنرال سكوبلين على إخفاء كوتجف والتخلص منه ، ولم تهدأ حركة النضال بين الروس البيض والبلاشفة ، ولست أدري هل ألقى النهلست سلاحهم أو أنهم ما زالوا مصرين على المقاومة ، وقد ذكرت بعض أخبار الحرب الأهلية التي أعلنوها على الحكومة

القيصرية ، وفيها أظهروا شجاعة خارقة ، ومثالية سامية وتضحية  
بالنفس والنفيس ، وقوة احتمال قليلة النظير ، وكثير من أعمالهم  
كان يبعثهم على إتيانها الظلم الصارخ والقسوة البالغة ، وسخافة  
الحاكمين ، وحقاقتهم وإسفافهم وإهدارهم كرامة الناس والعبث  
بمصائرهم ، وقد قتلوا القيصر الإسكندر الثاني وكان من أحسن  
قيصرة بيت رومانوف وأطيبهم نفساً وأكثرهم تحريماً لوجوه  
الإصلاح ، ولكنه في الوقت نفسه كان يمثل نظاماً بغيضاً إلى نفوس  
النهليست ، ولذا لم يلينوا معه ولم يترفقوا به ، واغتالوا الكثيرين من  
كبار الحاكمين وأعيان الدولة البارزين ، وقد عجزوا عن تغيير  
نظام الحكم ، ولم يستطيعوا بالإرهاب والتخويف تبديل  
القوانين ، بل لعلهم زادوا القيصرية إمعاناً في الشدة والطغيان ،  
ولكن تعاليمهم ومثالياتهم وجرأتهم وإخلاصهم لمذهبهم مهدت  
السبيل لوقوع الثورة الروسية ، وقد نستنكر أعمالهم ، ونستفزع  
أساليبهم ، ونشك في جدوى الجرائم التي ارتكبوها ، ولكن  
علينا قبل أن نقضى لهم أو نحكم عليهم أن نذكر الحكم السيئ  
الظالم القاسى الفاسد الذى استطار صوابهم بما فيه من ضروب  
القسوة وألوان الفساد ، حتى أتلف أعصابهم ، وأحال عقولهم ،  
وابتلى نفوسهم بالشدوذ والالتواء ، وجعلهم يعتقدون أن الهدم  
والتخريب والتدمير من الأعمال المقدسة والحسنات الجديرة

بالتخليد ، وأنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمم ، وانتشالها من  
حضيض الذل والهوان ، والسمو بها إلى مستوى القوة والرفعة ،  
وربما كانت أظلم الأوقات في تاريخ الأمم هي الأوقات التي  
يؤمن فيها الناس بأن الشر هو الطريق الوحيد للوصول إلى الخير ،  
وهذا هو أساس فلسفة النهلست التي غلبت عليهم واستبدت  
بتفكيرهم وملأت نفوسهم .

## جمعية اليد السوداء

كان اسم هذه الجمعية في الأصل « جمعية الاتحاد أو الموت » ، وكان غرضها أن تكون هناك وحدة تجمع بين سلافي الشمال وسلافي الجنوب ، وكان مقر الجمعية في بلغراد ، وكان أعضاؤها يجتمعون في إدارة جريدة « پيمونت » التي كانت تدافع عن النزعة السلافية .

وكانت المادة التي احتاج إليها دراجوتين ديمتريفتش الذي عرف باسم العجل إبيس لإنشاء مثل هذه الجمعية موجودة على أطراف أصابعه ، فقد كان يؤم حانة جرین جار لاند « إكليل الزهر الأخضر » ، الواقعة في أحد ميادين بلغراد ، المنفيون السياسيون والطلبة المبعدون من وراء الحدود ، وشذاذ أهل البلقان ويتجاذبون الأحاديث ويتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، وأمثال هؤلاء الناس ممن صفرت أكفهم من المال وامتألت رؤوسهم بالأحلام والأوهام وشعروا بأن المجتمع قد نبذهم ونفاهم ولم يصبح لهم فيه مكان ملحوظ ولا رأى مسموع كان يسهل على رجل مثل دراجوتين أن يؤثر فيهم ويوجههم الوجهة التي يريدونها .

وفى هذا المكان نفسه كان يجتمع طلبة الجبل الأسود الذين كانوا يتلقون العلم فى جامعات بلغراد ، وقد دبروا فيه مؤامرة سنة ١٩٠٧ لقتل الملك نيقولا ملك الجبل الأسود ، وقد أخفقت المؤامرة ، ولكن هذا لم يمنع غيرهم من رواد حانة « إكليل الزهر الأخضر » من بث الأفكار الثورية فى نفوس الشبان ، وكان رواد هذه الحانة ممن يعجبون بالقتل السياسى ويحرضون عليه ، ولذلك أثروا فى طلبة الجبل الأسود ، وجعلوهم ياتممرون بملكهم ، بالرغم من أن الملك لم يسئ إلى أحد منهم ، وكان أكثرهم يتلقى العلم على نفقة الحكومة التى حاولوا قلب نظامها واغتيال رئيسها .

واشتد ساعد جمعية اليد السوداء ودخل الصربيون فيها أفواجا ، وقد سارت الجمعية على نمط جمعية (١) الأوملادينا فكان كل عضو يسجل أسماء خمسة أعضاء آخرين ليكون منهم « يداً » ، وكانت الطاعة العمياء شرطاً أساسياً ، وكان كل عضو يقطع على نفسه عهداً بأن ينسى فرديته ، وكانت مراسم حفلة دخول الجمعية بشعة تبث الرعب ، كان العضو الحديد

---

( ١ ) جمعية الأوملادينا من أشهر الجمعيات السرية التى ظهرت فى البلقان ولعبت دوراً سياسياً هاماً وهى المسؤولة عن قتل الأمير ميخائيل الصربى والملك الإسكندر والملكة دراجا ولم يتسع المجال لسرد تاريخها فى هذا الكتاب .

يتبع ضامنه إلى حجرة مظلمة ، ويظهر بعد ذلك عضو من مركز الجمعية الرئيسي ويتولى الإشراف على الحفلة ، وكان هذا العضو يرتدى عباءة فضفاضة ، ويضع على رأسه قبعة سوداء ذات زفاف ، وأمامه منضدة قد ألقى فوقها قماش أسود ووضع فوق هذا القماش شمعة وصليب قد رسمت عليه صورة المسيح وهو مصلوب ، ومسدس وخنجر ، ويحلف العضو بالحديد بالصليب بأنه حينما يؤمر باستعمال الخنجر أو المسدس لا يتردد ولا يسأل ، ويقسم بعد ذلك بالشمس التي تدفئه ، والأرض التي تغذوه ، وبالله ، وبدماء أجداده ، وبشرفه وحياته .

وكانت الجمعية تلقى في روع الأعضاء أن الوطنية فوق كل اعتبار ، وأنها قد تستدعى ارتكاب الكبائر وإتيان المنكرات ، وأنها تبيح الغدر بأخلص الأصدقاء وإفشاء أسرارهم إذا اقتضى الأمر ، ويتلقى بعد ذلك العضو رقمه في الجمعية ، ويصبح بذلك خاضعاً لرئيس الشعبة ، ويلقنونه أن الجمعية لا تتردد في قتل الخائن الذي يعصى أمرها ، وكان إبيس هو المشرف العام على شعب الجمعية جميعها ، وهو الذي يوجهها ويصدر لها الأوامر والتعليمات ، وهو الذي يختار الطلبة الثلاثة الذين عهد إليهم في قتل الأرشيدوق فرانتر فرديناند وريث



العرش النمساوى ، وكانوا من البوسنة ، وخلال السنوات الثلاث التى سبقت مصرع الأرشيدوق النمساوى فى ذلك اليوم المشؤوم من شهر يونيو سنة ١٩١٤ ارتكبت الجمعية جرائم قتل كثيرة ، وقد أرسلت قتي مسلولا اسمه چوفانو قتش إلى فيينا لقتل الإمبراطور جوزيف فى سنة ١٩١١ ، ولم يسمع عن هذا الشاب شىء بعد ذلك ، وحاولت الجمعية فى فبراير سنة ١٩١٤ قتل الملك فرديناند ملك بلغاريا ، ومعظم حوادث القتل التى قامت بها الجمعية ارتكبت فى الأراضي النمساوية .

وكان ساعد إيبس الأيمن فى خلال تلك الفترة رجل من أعضاء جمعية البلد السوداء اسمه توكوستش ، وكان هذا الرجل موثلاً للمتناقضات ، كان صغير الحرم هزيل الجسم ، ولكنه كان فى الوقت نفسه جامع الطبيعة مخلوع العنان ، وكان وطنياً صادق الوطنية من الشرفاء النزهاء ، ولكنه كان شديد التعلق بمعتقداته ، قوى الإيمان بصحتها ، إلى حد أنه كان يستحل كل منكر فى سبيلها ، وكان فرط تحمسه لمعتقداته يدعو إلى الشك فى سلامة عقله ، ولما سمع إيبس أن بعض طلبة البوسنة تطوعوا لقتل الأرشيدوق اختار من بينهم ثلاثة تقل سنهم عن العشرين ، وكانوا مصابين بالسل ، ولا يرجى لهم أن يعيشوا طويلاً ، وكان كل واحد منهم حريصاً على أن يأتى بالفلق

ويتحرق شوقاً إلى ذلك ، وقد دفع إيبس هؤلاء الشبان الثلاثة إلى توكوستش وقال له « علمهم استعمال الأسلحة ودرّبهم عليها » .

وكان هؤلاء الشبان الثلاثة الذين وقع عليهم الاختيار هم جافريلو پرنزيب ونديلكو تشابرينو فتش وجراييز ، وكان برنزيب شاباً عاطفياً النزعة سقيم الجسم والعقل ، وكان تلميذاً بإحدى مدارس سيرا جيفو ، وقد حرصه أستاذه دانيلو لتش على الثورة والتمرد ، وساعده أخيراً في محاولة الاعتداء على الأرشيديوق وكان تشابرينو فتش ابن أحد الجواسيس النمساويين ، وقد مات أبوه في فقر مدقع ، وأثر ذلك في نشأته ، وكانت أحاديثه دائماً تتم على الرغبة في الثورة والتمرد ، وهو الذي أوحى إلى برنزيب فكرة قتل الأرشيديوق ، وكان ثالثهم ابن أحد قساوسة البوسنة ، ولكنه كان يعتقد أن الدين حديث خرافة .

ولما أتم توكوستش تعليم الشبان الثلاثة بدأوا رحلتهم ، ووضع لهم أحد أعضاء الجمعية خطة الانتقال من بلغراد إلى المكان الذي وقعت فيه الجريمة ، وقد ركبوا باخرة سارت بهم في نهر الساف حتى شاياتس ، وكانوا يحملون رسالة إلى رئيس نقطة الحدود هنالك ، وعمل الرجل بما في الرسالة فأخذهم إلى مكان إدارته وزودهم بجوازات مرور حرة ، وتناكر سفر خاصة ،

ولا شك أن السهولة التي تم بها ذلك كله كانت تبين أن وراء المؤامرة رجالاً أجلاً شأناً وأسمى منصباً من إبيس ، وقد دلت المحاكمات وقرائن الأحوال على أن الوزارة الصربية لم تكن بريئة من الاشتراك في تدبير هذه المؤامرة .

وكان الشبان الثلاثة يجهلون ذلك كله ، وكانوا ينتقلون وهم يحملون حمولة القنابل في شكل طرود من يد أحد العملاء السريين إلى يد العامل السرى الآخر ، وقد ناموا في تلك الليلة بدار أحد البخمارك الصربية ، وسيقوا في الصباح من هذه الدار إلى كوخ أحد المزارعين بإحدى جزائر نهر درينا ، وكان دليلهم أحد المشتغلين بتهرب البضائع ، وقد قادهم خلال الحدود في الغابات والمستنقعات ، وقد أنهكهم السير ، وهم في حالتهم الصحية السيئة ، حتى اضطروا إلى قضاء الليل في كوخ مهجور ، وذهبوا في اليوم التالي إلى منزل أحد العاطفين عليهم ، وقد أرشدهم هذا الرجل إلى أطراف « پريبوى » وتركهم في منزل رجل يدعى تشوبيلوفتش ، وهذا الرجل في دوره تقدم بهم وحمل لهم حمولتهم الخطرة فوق سرج جواده ، وقد كلفته هذه المساعدة حياته فيما بعد ، وبعد مخاطرات جمة وألوان شتى من الاحتيال على التخلص من مراقبة الشرطة وعيون الجواسيس تسلموا إلى ملاذهم الأخير ، وكان صاحب الدار عضواً في

جمعية الدفاع القومى التى تفرعت منها جمعية اليد السوداء ، ولكنه كان من الأعضاء المسلمين الذين لا يرون العنف ، وكانت مخاوفه لها ما يسوغها ، وقد دفع هو الآخر حياته ثمناً لإيوائه إياهم ، وقد رفض رفضاً باتاً أن يحمل لهم القنابل إلى سيرا جيفو ، ولذا سبقهم برنزيب إلى سيرا جيفو وقد عاونه أستاذه دانيلو إلتش على إحضار حمل القنابل من منزل مشكو يوفانو فتش الخائف المرعوب ، وخبأها تحت أريكته ، وقد عنى دانيلو إلتش بمعاونة الشبان الثلاثة عناية عظيمة ، ولم يأل جهداً فى بذل كل ما يستطيع من المساعدة ، وهو الذى اختار لهم المكان الذى يقفون فيه ، وهو الذى أحضر لهم سيانيد البوتاسيوم ، ليتناولوه مباشرة بعد إلقاء القنابل ، وكانوا جميعهم مستعدين للقاء الموت الوحى .

وفى يوم الأحد الموافق ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ وقف الثلاثة فى الأماكن التى اختارها لهم دانيلو إلتش ، وكان يوماً مشمساً قائظاً ، وبعد أن عرض الأرشيدوق وزوجته دوقة هوهنبرج الجيوش ، استقلا العربى إلى قاعة الحفلات بالمدينة ، بين هتاف الشعب وتهليله ، ولما اقتربت العربى من المكان الذى كان يقف فيه شابرينو فتش ، ألقى قنبلة سقطت فوق رفرف العربى ، ولم يلحظ أحد ما حدث سوى الأرشيدوق ، وقد انحنى إلى الوراء وتناول

الربطة السوداء وألقى بها من العربة ، وقد حدث انفجار شديد  
ملاً العربة التالية لعربته ثقباً ، ولكن لم يجرح سوى أحد  
رؤساء أركان الحرب .

وسارت العربة بالأرشيديوق حتى قاعة الحفلات ، وهناك  
ألقى عمدة المدينة كلمة ترحيب بالأرشيديوق ، وصبر الأرشيديوق على  
سماعها ، وقد تناهت نفسه المشاعر المختلفة ، وكان شجاعاً وفيه  
ميل إلى الفكاهة ، وقد ألح حاكم المدينة ورئيس شرطتها على ضرورة  
عودة الأرشيديوق من طريق آخر ، ولكن الأرشيديوق أصر على  
تنفيذ البرنامج بغير أدنى تغيير ، وكان طريق العودة يضيق  
عند زاوية فرانسيس جوزيف ، وقد وقف برنزيب في هذه  
الناحية ، فلما أبصر العربة قادمة خطا إلى الأمام وأطلق من  
مسدسه ثلاث رصاصات ، وكانت هذه الرصاصات هي التي  
بدأت الحرب الكبرى الأولى .

وقضت هذه الرصاصات على حياة الأرشيديوق وزوجته  
دوقة هوهنبرج ، وابتلع الشبان الثلاثة السم القاتل ليتجنبوا  
المحاكمة ، وما قد يرغمون عليه من الاعترافات ، ولكن الجرحات  
كانت خفيفة لا تكفى للقتل فأمرضتهم ولكنها لم تقض عليهم ،  
ولما كانت أسنانهم لا تبلغ العشرين لم يحكم عليهم بالإعدام ،  
وقد ماتوا جميعاً بالسل في سجن ثرنسشتارت قبل مرور ثلاثة

أعوام على حبسهم ، ونفذ حكم الإعدام في دانييلوالتش وكذلك  
أعدم الرجلان الآخران اللذان مهدا لهما سبيل الذهاب إلى  
سيراجيفو .

ولكن إيبس والرجال الآخرين المستترين خلفه ظلوا بمنجاة  
من العقوبة ، وكان دورهم الإجرامى في تاريخ العالم لم ينته بعد ،  
وقد نجوا من الإعدام لأن حكومة النمسا كانت تجهل مدى  
اشتراكهم في جريمة سيراجيفو .

وأظهر إيبس كفاية وإقداماً في الحرب الكبرى ، فأغدت  
عليه آيات التكريم والتشريف ورقى إلى درجات أعلى ، وفي سنة  
١٩١٦ لما كان الحلفاء يحاربون في الخنادق على مقربة من  
سالونيك إلى جانب الصرب واليونان كان إيبس رئيس هيئة  
أركان حرب الجيش الصربى الثالث ، وكان لا يزال وفياً  
لمبادئه الإرهابية ، وقد أشعلت في نفسه نيران الثورة هزيمة  
الجيش الصربى ، وقد اتهم إيبس الملك إسكندر بسوء التصرف  
في أحوال الصرب ، وبطبيعة الحال لم يكن إيبس يرى علاجاً  
لذلك سوى شىء واحد ، وهذا الشىء هو قتل الملك وإزالته  
من الطريق .

ولكن الملك كان هو البادئ بالهجوم في هذه المرة ،  
ففي سنة ١٩١٧ كانت مقترحات الصلح تلوح في الأفق

الدولى ، وتلمع خلال غبار الحرب ، وخشى الملك ورئيس وزرائه ما يحدث إذا أتيحت للنمسا فرصة الاهتداء إلى حقيقة جريمة سيراغيفو ، وإيبس يعرف الكثير من أسرار هذه الجريمة ، ولذا صمم الملك على التخلص منه ، وبحث أعوان الملك عن قاتل فى وكر القتلة الرهيب المسمى « باقة الزهر الأخضر » ، ودفع ثمانمائة جنيه ، ولكن لم يحدث شىء ، وكان رئيس وزراء الصرب باشتش يشعر بجريمته ، ولذا قام بمحاولة أخرى فى مقدونيا فأخفقت هذه المحاولة كذلك ، وأصبح لابد من محاولة جديدة .

فى سنة ١٩١٦ بينما كان الملك الإسكندر يسوق سيارته فى بلاد اليونان خلف جبهة سالونيك ارتطمت سيارته فى كمين وأطلقت عليه رصاصتان ، وألقى القبض على المدعو « مالويابى » أحد الهاربين من الجيش النمساوى ، وكان لهذا الرجل علاقة يشوبها الغموض بحادثة سيراغيفو ، وقد خضع حيناً من الزمن لتوجيهات إيبس ، ولم يكن هناك دليل واضح على أن إيبس له مشاركة فى هذه المحاولة لقتل الملك ، ولكن المحققين اكتفوا بوجود العلاقة القديمة بين مالويابى وإيبس ، وقدموا إيبس للمحاكمة فى سالونيك سنة ١٩١٧ ، والحرب لا تزال دائرة الأرحاء ، واعتقل رئيس هيئة أركان الحرب إيبس ومعه ستة



آخرون ، ووجهت إليهم تهمة التآمر على حياة رئيس وزراء الصرب باشتش ، وتهمة الاتصال بالعدو والحرب قائمة على قدم وساق ، وكانت محاكمتهم محاكمة صورية تثير الضحك وتسخره من العدالة ، وكان الحكم عليهم قد أعد قبل المير في التحقيق بزمن طويل ، وتدخلت إدارة الحرب البريطانية تطلب الرأفة بالمتهمين ، وحكم على الجميع بالإعدام ، ونفذ حكم الإعدام في ستة منهم .

وأعلن إيبس في وصيته الأخيرة قوله « إننى أموت بريئاً من التهمة التى وجهت إلى ، ومقتنعاً أن موتى كان ضرورة لأسباب متصلة بسياسة الدولة العليا » وقد كان الرجل على حق فى هذا القول ، فقد حوكم من أجل جريمة ، وحكم عليه بالإعدام من أجل جريمة أخرى !

أولكن موته لم يقطع سلسلة الجرائم ، ولم يطل بهامته طلب السقيا ، فقد ظلت الجرائم ترتكب باسمه بعد موته ، وأقسم كثير من أعضاء جمعية اليد السوداء على ضرورة الانتقام لقتله ، ونسجت خيوط المؤامرات لاغتيال الملك الإسكندر ، وأصبحت الدولة الجديدة — دولة يوجوسلافيا — على وجه التقريب ضعف حجم الصرب القديمة ، وفى السنوات التى تلت الحرب الكبرى كان للملك الإسكندر ودولته الجديدة خصمان لدودان ، وهما

إيطاليا والمجر ، فاتجهت إليهما أنظار جمعية اليد السوداء في طلب المال والحماية ، وكان أعضاؤها المنفيون يجدون في المجر الترحيب وطيب الإقامة .

وأخذ الإرهابيون في التدريب وإعداد العدة ، وأنشئت في إحدى مزارع المجر مدرسة لهذا النوع من التدريب ، وهي مدرسة « يانكاپوستا » المشهورة ، وزودت هذه المدرسة بأحدث الأسلحة وأشدّها فتكاً ، وكان يدرس فيها فن الاعتداء في الشوارع والطرق ، وطريقة الاختباء وراء الجمهور البريء والاحتماء بصفوفه ، وأعد في هذه المدرسة هدف في حجم الملك الإسكندر لتدريب الإرهابيين على إصابته بطلقات الرصاص ، وكان المشرف على المدرسة والمتولى أمرها رجل ضخم اللغاديد اسمه الدكتور أنتى پاقلتش ، وكان يدعى « بالرئيس » ، وكان خلفاً مناسباً لسلفه إيبس ، وقام الإرهابيون بمحاولات كثيرة للاعتداء على حياة الإسكندر في داخل يوجوسلافيا وفي خارجها ، ولكنها لم توفق ، وقد دعاه مرة بورييس ملك بلغاريا لزيارته زيارة رسمية توكيداً لصلات المودة بين الأمتين المحاربتين وكان الملك الإسكندر يلبس في هذه الزيارة صداراً مدرعاً لوقايته من الرصاص ، وكان الملك بورييس يتحرى في خلال هذه الزيارة الوقوف على الدوام أمام ضيفه فقد كان يؤثر

أن يموت على أن يقتل زائره في أثناء رحلته في بلغاريا .  
 وكان الخطر الذى يهدد حياة الملك الإسكندر شديداً  
 ويحتاج دفعه إلى الرقابة التى لا تغفل والحيلة الوافية ، وكان  
 قتله فى أرض أجنبية يلائم الكثير من الخطط التى وضعت  
 لاغتياله ، ويرضى أهواء الكثيرين ، وأعد فى يانكاپوستا ستة  
 رجال لاغتنام مثل هذه الفرصة ، ودرّبهم الدكتور بافلتش  
 أحسن تدريب للقيام بهذه المهمة ؛ وكانت زيارة الملك  
 الإسكندر لفرنسا فرصة لا مثيل لها هياها القدر للجمعية .  
 وسافر إلى فرنسا ستة الرجال عن طريق سويسرة ،  
 حاملين جوازات سفر مزورة ، ولما اقترب الرجال الستة من  
 مرسيليا عرفهم زعيمهم كرامر بالمطلوب منهم ، وكان هو وحده  
 الذى يعلم التفصيلات عن المحاولة المزمعة ، وعرف الأعضاء  
 الخمسة الدور الذى سيقومون به ، وكانوا يعرفون أنهم إذا أخفقوا  
 فإن الجمعية لا تعفيهم من القتل ، ولا تقبل عثرتهم ،  
 وأنهم إذا قاموا بمحاولتهم فإن الشرطة أو الجمهور سيفتكون  
 بهم ، وتردد واحد منهم ووجد فى نفسه الشجاعة لتحدى  
 مخاوف اليد السوداء فتسلل من بينهم واحتفى بالشرطة بعد ذلك .  
 وكان الدكتور بافلتش فى مرسيليا ليشرّف على الخطط  
 النهائية ، وقام الخمسة الباقون بتنفيذها ، وتمكن أحدهم - وهو

كالرمان — من الوثوب إلى داخل العربة الملكية وهي سائرة ، وأطلق الرصاص على الملك الإسكندر والمسيو برتو وزير خارجية فرنسا وأرداهما ، وضربه حارسهما الذى كان يمتطى الجواد بسيفه بعد فوات الأوان .

وألقى القبض على ثلاثة من المتآمرين ، وهرب كرامر والدكتور بافلتش إلى إيطاليا ، ورفض موسولينى تسليمهما ، وخرجت يوجوسلافيا من محور السياسة الفرنسية ، وانتقلت إلى محور السياسة الإيطالية ، ونجحت المؤامرة وانتقمت الجمعية لرئيسها إيبس .

وعادت مدرسة يانكاپوستا مزرعة كما كانت فى بادئ الأمر ، ولكن جمعية اليد السوداء ظلت حية ، ولا أدري مصيرها فى الوقت الحاضر ، ومهما يكن من أمرها فإنها يكفيتها فى إحصاء مساوئها أن جريمة سيراچيفو التى دبرتها كانت السبب المباشر لاندلاع نيران الحرب العالمية الأولى .

## جمعية الكوكلا كس كلان

في سنة ١٨٦٥ كانت حالة الولايات المتحدة الجنوبية سيئة ، فقد استمرت الحرب الداخلية أربع سنوات ، قتل فيها خيرة رجالها وفقد الباقون ما لهم من مال وعتاد ، ولم يكن الأمن مستتباً ولا النظام مستقراً ، وفي مثل هذه الحالة تظهر ضروب مختلفة من الجمعيات السرية ، وظهر أثر الفكاهة الأمريكية في الأسماء التي كانت تتسمى بها أمثال هذه الجمعيات فمنها جمعية « اتحاد المظلات » وجمعية « الذين لا يدرون شيئاً » ، وكان أعضاء هذه الجمعيات مع ادعائهم أن لجمعياتهم أسراراً غامضة لا تباح معرفتها إلا للقلائل ، يمشون زرافات في الشوارع حاملين الأعلام والطبول ومرتدين ملابس عجيبة الشكل غريبة اللون ، وكانت طبقة السود في الولايات الجنوبية محرومة من حق الانتخاب ، ولكن بعد انتصار أهل الولايات الشمالية على سكان الولايات الجنوبية أرغمهم الشماليون على تعميم حق الانتخاب ، وعزز ذلك مكانة السود ورفع من شأنهم ، بعد أن ذاقوا الاضطهاد وتجشموا الأهوال ، وكانت حالهم مثل حال معظم

المحدثين في الظفر بالحرية لا بد أن تمر بهم فترة يجدون فيها شيئاً من الصعوبة في التمييز بين الحرية والقوضى . والذي ظل بعيداً عن الضوء حيناً من الزمن غير غريب أن يبهه الضوء ويسدر بصره . وكذلك الذين حرّموا من الحرية زمناً لا يستغرب أن يبهه ألبابهم نور الحرية ، ويطيش بأحلامهم ويفقد هم توازنهم ، وكان من أثر ذلك أن أصبح موقف البيض في الولايات الجنوبية أسوأ من موقف السود قبل نشوب الحرب الداخلية .

وفي هذا الجو العاصف والموقف الحرج ظهرت جمعية الكوكلاكس كلان ، ففي شهر مايو سنة ١٨٦٦ اجتمع فريق من الشبان في إحدى المصالح لترجية الوقت ودفع الملل . واقترح أحدهم إنشاء ناد يضم شتاتهم ويرد عنهم عوادي الضيق والسأم ، وتحمس الباقون للفكرة وراقهم الاقتراح ، وبدأوا يتشاورون في اختيار الاسم ، وقال أحدهم : « ما رأيكم في كوكلوس اليونانية ومعناها الدائرة ؟ » فأعجب المجتمعون بالاسم لغرابته ، وحرفوه إلى كوكلاكس ثم أضافوا إليه كلمة « كلان » إمعاناً في الإغراب ، ومجارة لروح العصر القلقة النافرة .

وأثر هذا الاسم الغريب في اتجاهات الجمعية ، فقد حرصت أن تلاثم بين أغراضها الغامضة وبين اسمها العجيب ، وكان عنصر التسلية وحب الفكاهة غالباً على الجمعية في بادئ

الأمر ، ولكن الاسم العجيب يستدعى إحاطته ببعض غوامض الأسرار ، وتمشياً مع اسم الجمعية الغريب أخذ الأعضاء يطلقون على أنفسهم ألقاباً عجيبة منها «الساحر العظيم» «العملاق الكبير ذو العين الواحدة» (السيكلوب) «رقعة الشطرنج الكبيرة» والهدرا والاحتدام والبومة وما إلى ذلك من غريب الأسماء ، وكان يطيب لكل عضو أن يتنكر ويتخفى .

وعقد أول اجتماع للجمعية في جنح الليل ، وقد أخاف السود وأرعبهم ، وكان يطوف بالمكان الذي تقام به الحفلات لاستقبال الأعضاء الجدد فريق من الأعضاء متنكرين في ثياب بيض لمنع الغرباء والولوعين بحب الاستطلاع من الاقتراب وإخافتهم ، واشتد الإقبال على الجمعية ، وكانت في بادئ أمرها تتحرى في اختيار الأعضاء أن يكونوا من ذوى السيرة الحسنة والسمعة الطيبة ، فإذا أصر أحد الناس غير المرغوب فيهم على الالتحاق بالجمعية والوقوف على أسرارها أعطوه درساً لا ينسى . وقد قبل مرة أحد هؤلاء بالجمعية في الظاهر ، وقادوه إلى مكان موحش ، وهو معصوب العينين وأمر بالانتظار حتى يتلقى أوامر الرئيس ، وظل ساعات ينتظر صدور هذه الأوامر حتى أملاه الانتظار ، ولم يعد يستطيع صبراً وعاد أدراجه خاسئاً مستخزياً ، ووضع رجل آخر من



هؤلاء في برمبل وألقى بالبرميل من تل منحدر ، وقنع الرجل بعودته حياً .

واكتشف أعضاء الجمعية أن الملابس العجيبة التي يرتدونها للتكر تثير الرعب في قلوب السود النزاعين بطبيعتهم إلى الاعتقاد بالخرافات ، وكان الكثيرون من أعضاء الجمعية من جنود الاتحاد الذين خاضوا غمار الحرب الداخلية ، وكان السود قد أوجدوا جماعة أسموها جماعة « الاتحاد الأمين » وكانت مهمة هذه الجماعة إزعاج البيض الذين اشتركوا في الحرب للإبقاء على العبودية وعدم المساواة ، واستغاث ضحايا هذا الإزعاج بأعضاء الجمعية ، فأغاثتهم الجمعية وبدأ « ركبان الليل » يلعبون دورهم المعروف الذي أضر بسمعة الجمعية ، وتهافت الشبان على الدخول في الجمعية من القرى المجاورة ، وأسسوا بعد ذلك مغارات في قراهم .

ولم يدر بخلد الأعضاء الجدد أن نشوء الجمعية في الأصل كان لوناً من ألوان الفكاهة والمجانة والتسلية ، ولم يستطيعوا التصديق بأن الحفلات التي تقام للأعضاء والملابس العجيبة والرموز والشارات والأسرار المصطنعة ليست جميعها سوى مهزلة من المهازل وملهاة من الملاهى ، وكلما بذل الأعضاء القدامى جهد الإفهام الأعضاء الجدد أن المسألة كانت مجرد لون من

ألوان العبث والفكاهة قوى اعتقاد الأعضاء الجدد بأن في الأمر سرّاً عميقاً ولغزاً دقيقاً . فلما التجأ البيض الذين استهدفوا لعدوان السود إلى الجمعية طالبين الحماية ودفع الأذى ، ساعدوا الجمعية على أن توجد لها هدفاً ترمى إلى تحقيقه ! وهكذا تكونت كتائب ركبان الليل ، وكانوا يحملون السود إلى الغابات ويوسعونهم ضرباً ، ولم تقف الجمعية عند هذا الحد ، فقد شق أفرادها أحد الزنوج ، وقد اضطروهم هذا العمل إلى تقوية الروابط التي تربط بعضهم ببعض ، وأمعنوا بعد ذلك في الإجرام واستساغوه ، واستولى عليهم حب الانتقام ، فأكثروا من القتل ، وبالغوا في القسوة ، وأصبحوا لا يبالون هل أتى ضحيتهم ما يستحق من أجله القتل أولاً .

واستطاعت الجمعية أن تخيف المجرمين وتلزمهم احترام القانون ، وتكبح جماحهم ، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً ، فقد تكاثر عدد أعضائها ، وكان بين الأعضاء الجدد بعض الحمقى المتهورين والأشرار المناكيد ، وسوأ هؤلاء سمعة الجمعية ، وحاكى بعض الناس أعضاء الجمعية في تنكرهم ، فكانوا يلبسون الطرطور الأبيض والعباءة البيضاء وينتقمون من خصومهم ، وانكشف أمر أمثال هؤلاء لم يعد إلى الجمعية سابق مكائنها ، وحاولت أن تقلم أظفار بعض أعضائها وتخضعهم للنظام ولكن

المحاولة لم تنجح ، وكان يطلق على أعضائها الرصاص في أثناء ركوبهم في الليل ، وكانوا يضطرون إلى مقابلة الاعتداء بمثله ، مما زاد مشكلتهم تعقيداً ، وتشجع السود وكونوا من رجالهم جيشاً ، وهزموا جماعة الكوكس كلان في بعض النواحي رغم الألاعيب التي كان يقوم بها أعضاء الجمعية في إرهابهم .

ولما كثرت جرائم الجمعية باءت بعداوة البيض والسود ، وحاول الحاكم براونلو أن يخمّد أنفاسها ، واتخذ إجراءات شديدة لتحقيق ذلك ، وسن قانوناً بمعاينة كل من يخالط جماعة الكلان أو يتخذ شعارها ، وأمر بمقاطعة زوجات الأعضاء المعروفين وأبنائهم ، واعتبارهم من طريدى المجتمع ، وبعد انقضاء سنتين حافلتين بالحوادث المثيرة أعلن « الساحر الأعظم » في مارس سنة ١٨٦٨ حل جمعية الكوكلاكس كلان واستقالة الأعضاء ، فحرقوا شاراتهم وملابسهم الليلية ، وانتهت قصة الجمعية التي أرعبت السود وهددت الأمن العام ونازعت الدولة سلطتها .

ولكن شاء القدر أن يكون لقصة هذه الجمعية ذيل وملحق ، وأن يكون لتاريخها بقية من الذكر السيئ والأثر البغيض ، فقد دبت فيها الحياة سنة ١٩١٥ . وفي يوم ١٦ أكتوبر جمع وليام جوزيف سيموندز - أحد ضباط الجيش الأمريكى السابقين -

أصدقاءه وجماعة من الشبان وقادهم إلى قمة جبل ستون في أتلانتا - وكان هذا الرجل قد اشتغل بالتبشير بعد تركه خدمة الجيش - وأعلن عودة جمعية الكوكلاكس كلان إلى الحياة ، ولم يكن سيموندز بارعاً في التنظيم ، وكان يرى من وراء إحياء الجمعية إلى مقاومة نفوذ اليهود والزنج والكاثوليك والمهاجرين المحدثين ، وفي صيف سنة ١٩١٩ كانت الجمعية قد نال منها الضعف حتى كاد يقضى عليها ، ولكن الفوضى التي تلت الحرب العالمية الأولى أمدتها بشئ من القوة ، فقد غمرت أمريكا موجة من الخوف والتوجس ، وهذا الخوف كان يغري بعض الناس بالانضمام إلى الجمعية والتعلق بمبادئها ، وكان الجنود السود قد عادوا من فرنسا ، وقد عوملوا بها معاملة حسنة وتشبعوا بأفكار جديدة عن حقوقهم في العالم ، وكانت نقمة بعض الأمريكيين على الرئيس ويلسون وعصبة الأمم قد استحوالت كراهة لليهود والكاثوليك والمهاجرين المحدثين .

واستعان سيموندز بجماعة من الذين يحسنون تنظيم الجمعيات ، وأخذ يثير نزعة التعصب القومى وينبه الأحقاد الكامنة والكراهات الهاجعة ، وكثر أعضاء الجمعية ، وأصبحت جمعية إرهابية ، وارتكب بعض أعضائها جرائم منكرة ، وكانوا يخلصون باعتدائهم اليهود والكاثوليك والشيوعيين والأجانب .

وأسرف أعضاء الجمعية في الإجرام والاعتداء وارتكاب الكبائر ، حتى استيقظت أمريكا من غفوتها ، واشتد غضب الرأي العام على الجمعية وأعضائها ، وبدأ الناس يهاجمون الأمكنة التي تعقد فيها الجمعية اجتماعاتها ويعتدون على أعضائها ؛ وفي آخر سنة ١٩٢٨ كانت الجمعية قد ضعف شأنها وذهبت سطوتها ، وقد قامت هذه الجمعية على أساس إثارة الحماسة الدينية والجنسية والقومية ، ولكن منظميها كانوا يريدون استغلال هذه الحماسة المثارة لمصالحهم الشخصية وأهدافهم المالية ، ويزعمون أن غايتهم أن تكون « أمريكا للأمريكيين »

## جمعية الملاكمين (البكسرز)

في أصيل القرن التاسع عشر ظهرت في الصين جمعية سرية جديدة ، ولم يكن في ظهور جمعية سرية في الصين ما يدعو إلى الغرابة ، أو ما يخالف منطق الحوادث ، فالصين كانت في مختلف العصور موطناً للجمعيات السرية ، وقد عانت الصين كثيراً من سوء الحكم وطغيان الحكام ، وعجزهم وتقصيرهم ، وأثقلتها الضرائب ، واضطرت إلى أن تحارب في العصر الحديث بأسلحة العصور الوسطى ، حتى أبيح حماها وطمع فيها الطامعون واستندلها الغزاة ، وجرحوا عزتها ونالوا من إياها ، وكان لا بد أن يجد أهلها في الجمعيات السرية منفذاً لما يحيش بنفوسهم من الحقد والبغضاء .

وقد ظهرت جمعية أي هوتيان في ناحية كيوان بشانتونج ، وعظم إقبال الناس عليها ، وكان لها حفلاتها السرية التي يتلقى فيها الأعضاء المستجيبون تعاليمها ومبادئها ، ويتحمسون للوفاء بعهودها ، والدخول تحت أماناتها وضيانة أسرارها ، وكان كل عضو يحمل طليماً أصفر اللون ، قد رسم عليه صورة مكونة

من إنسان وقديس وشيطان ، وحول رأسها هالات أربع ، وعلى  
الجسد رموز تمثل البوذا والنمر والتنين ، وفي الأركان الأربعة  
دعوات وابتهالات لحراس السماء وآلهة الآباء السود ، ورقى  
أخرى متنوعة ، وتوسلات مختلفة ، وكان حاملو هذه التهمة  
يغشون ميادين الوغى ، معتقدين أن الموت لا يستطيع أن يغلب  
هذه التهمة الصفراء ، وكان هذا الاعتقاد يجعلهم يقدمون على  
حومات النزال غير هيايين ولا وجلين ، وكانت هذه الشجاعة  
التي لا تبالى شيئاً تخلق منهم مهاجمين لا يطاق لقاءهم ولا يصبر  
على منازلهم .

وكانت أسرة المانشو القابضة على زمام الأمر في الصين  
قد قاومت جمعيات سرية كثيرة سابقة لهذه الجمعية ،  
وأبطلت سحرها ، ولم تحفل بتعاويذها وأسلمت قاداتها لأيدي  
الجلادين ، ولكن جمعية الأي هوتيوان أو « قبضات التوافق  
الصالحة » كانت تختلف عن الجمعيات السابقة التي هزمتها  
الحكومة وبددت شملها .

كانت هذه الجمعية تمثل كراهة الشعب لهؤلاء الشياطين  
والقراصنة الأجانب ، الذين اقتحموا البلاد الصينية ، وكانوا  
ضيوفاً ثقلاء ولصوصاً ماكرين كدروا صفاء الصينيين ،  
وأفسدوا عليهم أمورهم ، وكانت هذه الكراهة لهؤلاء الأجانب



الوقحين والدخلاء السلايين خير شفيح للجمعية ، ولذلك ظفرت الجمعية بعطف صاحبة السمو الإمبراطورى الإمبراطورة الوالدة « تز ه شي » وكانت هى الحاكمة القديرة الجالسة على عرش أسرة مانشو ، وقد استلبت السلطة من يد الإمبراطور الضعيف ، وأصبحت صاحبة الكلمة النافذة والرأى المطاع فى أمة بلغ عدد أفرادها أربعمائة مليون نسمة ، وقد عرفت الجمعية باسم جمعية الملاكين - البكسرز - فى شتى أنحاء العالم ، وباعت بكرة أمم كثيرة ودول قوية وحملتها على إرسال جيوشها خلال البحار وغيرت معالم تاريخ الصين .

وقد غزت اليابان الصين فى الحرب التى أعلنتها عليها واستمرت من سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٨٩٥ ، وتلا ذلك تدفق الأجانب إلى ثغور الصين بصورة أطارت حلم الصينيين واستنفدت صبرهم ، وجاوزت مدى احتمالهم ، فقد هجم عليها الإنجليز والأمريكيون والألمان والفرنسيون والروسيون هجوماً الجياع على القصاع الحافلة ، وكانوا يطلبون مناطق نفوذ وامتيازات وفتح أسواق الصين لسلعهم وإرسالياتهم ، واقترحوا على الحكومة الصينية القيام بمد خطوط حديدية وبناء طرق فى أنحاء الصين المختلفة ، وضايق الصينيين طريقة هؤلاء الأجانب فى عرض طلباتهم وتعاليمهم وشموخهم ، وكان

الصينيون معترين بحضاراتهم القديمة فخوريين بها ، وفي اعتقادهم أنها أسمى حضارة عرفت ، فكيف يجترئ هؤلاء الغرباء الأنكاد على محاولة فرض أساليب مدنيّتهم على هؤلاء الذين قد تمكن منهم الاعتقاد بأنهم أسمى منهم مدنية وأعرق أصلاً ؟ ولم يستطع الغربيون من ناحيتهم فهم العقلية الصينية واعتزاز الصينيين بأنفسهم ، وقد كان للصينيين عقيدتهم الدينية المتأصلة ، وهي ديانة تقوم على الولاء للآباء وتقديس الأسلاف ولذا كانوا يمقتون الإرساليات الدينية أشد المقت .

وكانت الإمبراطورة الوالدة في حيرة من أمرها ، كانت تخشى نجاح الثورة ، لأن الثورة التي تنجح في التغلب على الأجانب قد لا تقف عند هذا الحد ، وتتخطاه إلى شن الهجوم على الأسرة الحاكمة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه أشد كراهة للأجانب الشياطين منها بلجمعية الملاكين ، وكانت أفكار هؤلاء الأجانب عن حرية المرأة وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من الآراء التقدمية تزعجها وتثير مخاوفها ، وقد امتلأت نفسها حقداً على الأجانب ونفورا منهم ، لأنهم أرغموها على فتح بلادها لتجارهم وبعثاتهم وإرسالياتهم التبشيرية ، وكان آخر ماضيقها واستفزها من هؤلاء الأجانب أنهم فرضوا على الحكومة الصينية الامتياز الذي يسلبها حق وقفهم أمام محاكمها ،

ويمنحهم حق المحاكمة أمام محاكمهم الخاصة .  
وبالرغم من أنها شاهدت حرقهم الكنيسة الفرنسية في  
بيكنج ، وفي داخلها مئات الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية  
والرجال والنساء والأطفال وهي راضية ومستريحة لهذا العمل  
فإنها مع ذلك أمسكت عن المساعدة المكشوفة والتأييد في  
العلانية .

واستفحل نفوذ الجمعية في مقاطعة شانتونج ، وكان حاكم  
الجمعية يوهسين المسن ، وقد رأى في الملاكين سلاحاً ماضياً  
في محاربة الأجانب والمحافظة على عرش أسرة المانشو الذي كان  
يستمد منه قوته ونفوذه ، فكان الملاكمون وقد أظلمت حمايته وشملتهم  
رعايته يهاجمون الإرساليات المسيحية ويوسعون رجالها قتلاً .  
وفي أول يونيو سنة ١٩٠٠ كانت الدول تضع الخطط  
لتقوية مفوضياتها بمدينة بيجنج ، وفي ١٧ منه اضطرت  
الدول إلى احتلال حصون تاكي ليظل الطريق إلى تينتن  
مفتوحاً ، وصحب هذا العمل طلب تنازل الإمبراطورة الوالدة  
— بوذا العجوز كما كانوا يدعونها — عن العرش إن لم تحد من  
نشاط الملاكمين .

وقد عقدت السيدة الغاضبة مجلسها الاستشاري الأعلى ،  
والرجل الوحيد الذي اجترأ على التشكيك في حكمة مقاومة الدول

طرد من الاجتماع وقنع بنجاة رأسه ، وكان رد « بوذا العجوز »  
أن القضاء على جماعة الملاكين بمثابة قطع الإنسان جناحيه ،  
وأصدرت أمرها بقتل كل الشياطين الأجانب وضم جنودها  
إلى صفوف الملاكين .

واشتعلت الثورة في نواحي الصين ، وحوصرت مفوضيات  
الدول ووقفت على الأبواب ألوف من الجنود المسلحة تسليحاً  
ناقصاً ، وإلى جانبهم الملاكون حاملين تمامهم الواقية ،  
وتلقى أحد الجنود التابعة لأسرة مانشو الأمر بإطلاق النار  
على الأجانب جميعهم ، وأصابت أولى طلقاته وزير ألمانيا  
وسكرتيه ، وعذب رجال الإرساليات في جميع أنحاء الصين  
وقتلوا وحرقوا دون نظر إلى جنسيتهم أو سنهم أو نوعهم  
أو طائفتهم ، وقتل في بيكنج وحدها تسمعة من الصينيين  
الذين اعتنقوا المسيحية ، بدون محاكمة ، وعذب ألوف من  
المسيحيين في مقاطعة أخرى وقتلوا .

وانتقل الحاكم يوهسين نصير الملاكين من شانتونج إلى  
شانشي وأطلق عليه هناك لقب « نيرون الصينى » ، وقد أمر  
بإحضار أفراد الإرساليات جميعاً إلى ساحة الحاكم ليكونوا تحت  
 حمايته ، ولم يكن لهم في الأمر خيار ، وأحضر الرجال والنساء  
والأطفال إلى الساحة ، وقد أحاط بهم الجنود ، وظهر الحاكم

وسأل بعضهم من أين جاءوا ، فقال فريق منهم إنهم جاءوا من فرنسا ، وفريق آخر قالوا إنهم جاءوا من إنجلترا ، ومنهم من قالوا إنهم قدموا من ألمانيا ، وابتسم الحاكم ابتسامة وحشية غادرة ، والتفت إلى جنوده وصاح بهم قائلاً : « اقتلوهم جميعاً » فزقهم الجنود إرباً إرباً

وكانت « بوذا العجوز » تمنح مكافأة مالية لقتلة الأجانب الهمج المستوحشين ، وكبر ذلك على أقدم مستشاريها چونج لو ، وساءه أن تغدق الإمبراطورة الوالدة المال على قتلة النساء والأطفال ، وقدر ما سيكون لذلك من وقع سيئ في نفوس الأمم الأوروبية ، وكانت جميعها جبهة واحدة ضد الصين ، وتجمع الغرباء من جميع الأمم حول المفوضية البريطانية في بيكنج ، وحارب الفرنسيون والألمان والروس واليابانيون جنباً إلى جنب لحمايتها تحت قيادة السير كلود ماكدونالد الوزير البريطاني ، وجاهدت فرقة إنقاذ مكونة من بحارة تحت قيادة السير إدوارد سيمور لتشق طريقها من تبتسن بين حشود من الجنود الصينيين والملاكين ، واعترضتها عوائق جمة وأنقذها من الإبادة استيلاؤها على إحدى دوز الأسلحة الصينية ، وظلت هذه الفرقة تكافح الجنود الصينيين والملاكين بالأسلحة الصينية مدة شهرين ، صابرة على الحصار مترقبة

النجدة ، وتدفقت الجيوش من الهند وألمانيا وأمريكا ، ومن كل دولة متحضرة على وجه التقريب ، وكان الملاكمون قد خلعوا نقاب السرية ، وعملوا في العلانية ، واستطارت صوابهم لإراقة الدماء ، وشجعهم الاعتقاد بتأثمهم الواقعة على الإقدام ومحاولة قطع مواصلات القوات الزاحفة ، ولكن لم يكن لهم قبل بصدد الجموع السيالة والقوات الهاجمة ، ورفع الحصار المضروب ، وانهارت المقاومة ، وحصدت المدافع الثقيلة حشود الملاكمين حصداً ، وتركت في صفوفهم ثغرات واسعة ، ولم تغن عنهم تأثمهم ، واستولت سفن الحلفاء على تينتنسن . ولما دخل الحلفاء المدينة وقد اشتعلت فيها النيران بدأ السلب والنهب ، ولم تنج منهما بيكنج ، وكشفت الجيوش المهاجمة فظائع الملاكمين فعاملت أسراهم بالمثل ، ونكلت بهم تنكيلاً فظيلاً .

وفي يوم ٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ في الساعة الثالثة بعد الظهر ، نهضت الإمبراطورة الوالدة وارتدت ملابسها بعناية واستعدت للفرار مع الإمبراطور ، وفي رفقة ثلاثة من أعضاء مجلسها الأعلى الاستشاري ظلوا موالين لها ، وكان الشياطين الأجانب قد دخلوا المدينة ، وعسكر جنودهم في «معبد السماء» ، وكان الإمبراطور يرغب في البقاء للتفاهم معهم ، واجترأت

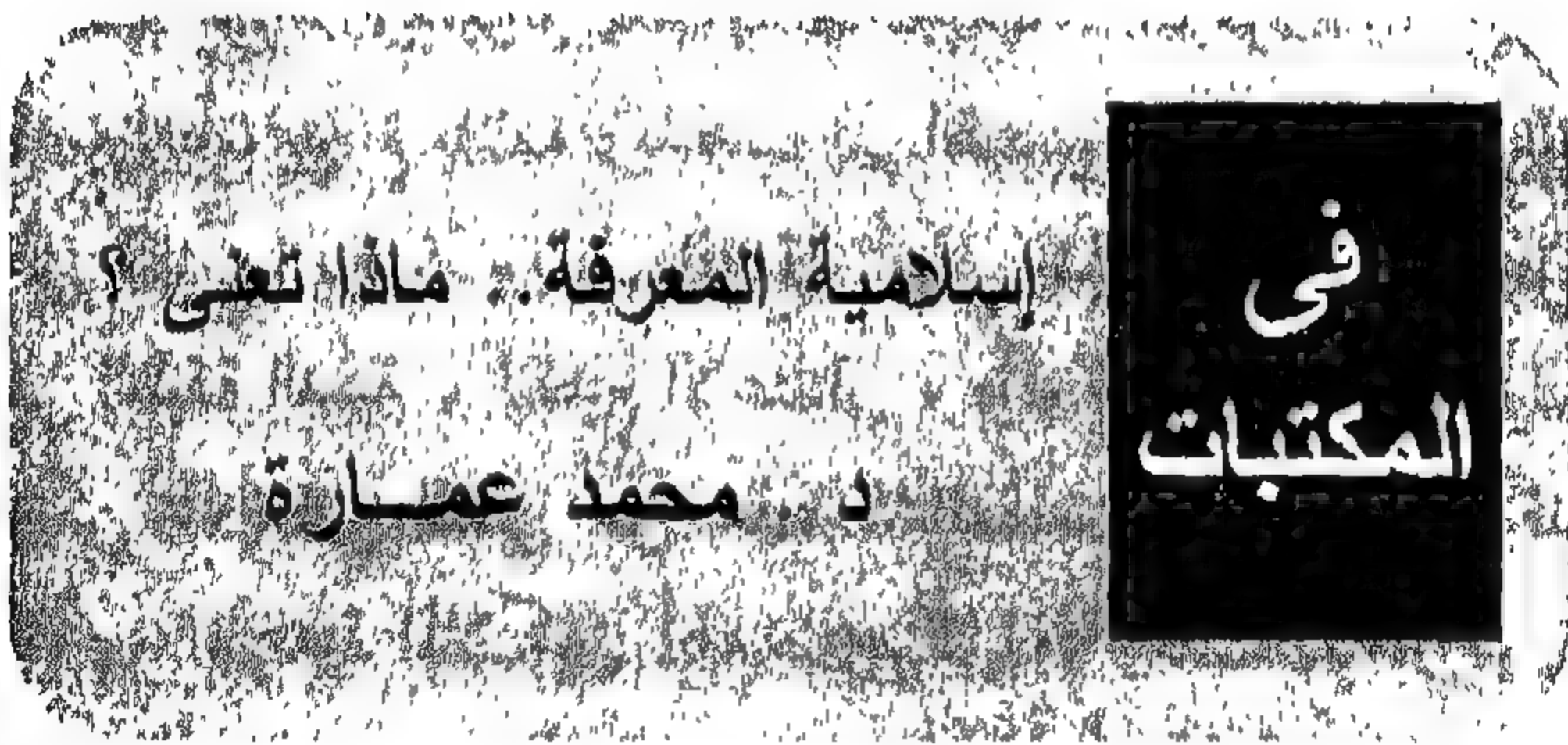
زوجته الحظية على أن تركع أمام الإمبراطورة العجوز الحيزبون القاسية وتتوسل إليها أن تهدي الإمبراطور إلى سبيل الرشد وطريق العقل ، فما كان من العجوز الدويهة إلا أن أشارت إلى كبير الخصيان وأمرته أن يحمل الزوجة البائسة ويلقيها في قعر البئر الكبيرة في ساحة القصر رغم معارضة الإمبراطور الشديدة الحارة ، وفرت بعد ذلك الأسرة المالكة فراراً معيماً مزريراً من « بوابة النصر » .

وكان ما أراده الشياطين الأجانب ، وأرغمت الإمبراطورة على قص جناحيها ، وذلك بالقضاء على جمعية الملاكين التي كانت تؤثرها وتحبوها بعطفها وتشجيعها ، وأمر أحد أمراء الصين بأن يرخ بلاده ويذهب إلى القيصر ليقدم له الاعتذار عن قتل وزيره ، ويقال إنه قد أرسل بدلاً من الأمير رجل من الطبقة الدنية ، ليقدم الاعتذار ، وأنه انتحر بعد عودته ، ولكن — بغض النظر عن هذه الشائعة — فإن الاعتذار قد قدّم ، وجمعية الملاكين أخذت حركتها ، وظلت الإمبراطورة الحيزبون على عرش الصين عشر سنوات أخرى لترى تغيرات أعمق مدى وأبعد أثراً .

وطلبت الدول من الإمبراطورة طلبات كثيرة ، وكان أشدها وقعاً في نفسها وأقواها إشعالاً لنيران حقدها طلب إعدام زعماء



الملاكين ، وقد وافقت في النهاية على هذا الطلب ، ولما علم كثيرون من هؤلاء الزعماء أن الإمبراطورة قد تخلت عنهم ، وأقرت الأمر بإعدامهم آثروا الانتحار ، وقد اكتفى الحاكم يوهسين - الذى لقب نيرون الصين - بأن يقول « لقد قتلت الغير والآن جاء دورى » ولقى الموت فى شجاعة . وبموته انقطع الرجاء من الجمعية ، وجر عليها العفاء أذياله .



## الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة .....	٥
طائفة الإسماعيلية النزارية .....	١٨
طائفة الخناقين .....	٣٨
جمعية الجاردونا .....	٤٩
جمعية المافيا .....	٥٨
جمعية الكامورّا .....	٧٠
الجمعيات السرية الألمانية .....	٧٦
الجمعيات السرية الإرنلندية .....	٨٧
النهلست أو العدميون .....	١٠١
جمعية اليد السوداء .....	١٢٧
جمعية الكوكلاكس كلان .....	١٤١
جمعية الملاكمين (البكسرن) .....	١٤٩

# إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

## الإشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
  - الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكياً
  - الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكياً
- تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة  
الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.
- أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/٧٩١٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5846-6

١/٩٩/٤٧

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )



لعبت الجمعيات السرية دوراً هاماً  
وخطيراً في حياة الشعوب، ومن الشائع  
أن هذه الجمعيات كانت وسيلة من  
وسائل الهدم والتدمير .

لكن هناك جمعيات سرية كانت أداة  
هائلة من أدوات التغيير والإصلاح،  
وساعدت علي تحقيق الأهداف  
النبيلة والغايات المثلى كما أن هنالك  
بالفعل جمعيات سرية كانت سبباً في  
أحداث مروعة ومصائب منكرة.

فما هي حقيقة هذه الجمعيات ؟  
وما هو السبب الخفى الذى جعل بعض  
الناس يضحون بحياتهم من أجل  
خدمة هذه الجمعيات ؟

هذا ما سوف تعرفه بين صفحات هذا  
الكتاب .



دارالمعارف

٤٠١٥٤٦/٠٣

